د. عبد الرحمن عميرة

الثقافـة الإسلاميـــة

بيـــن

منهج الإسلام والنظريات المعاصرة

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م

الثقافة الإسلامية

بين

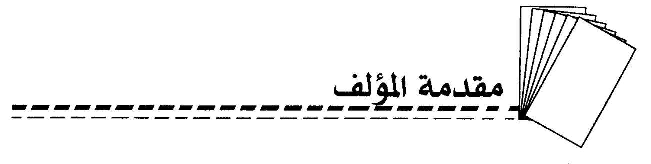
منهج الإسلام والنظريات المعاصرة



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾

[الفاتحة: ١ ـ ٧].

منهج الثقافة الإسلامية



مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، محمد ابن عبد اللّه وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اجعل الحق هدفي من كل أعمالي، واجعل الصدق شيمتي، والإخلاص للحق ديدني، والقرآن حجتي.

آمنت بالله رباً، وبمحمد ﷺ - نبياً ورسولاً.

يطيب لي أن أقدم لابنائي الطلاب في هذه المذكرة نبذة مختصرة عن النبع الصافي، المصدر المباشر لكل التعاليم، عنيتُ به كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. إنه القرآن الكريم: «من ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[1].

لقد جاء القرآن الكريم، ومن بين أهدافه تربية جيل من الناس، تربية أمة من الأمم، لتحمل هذا الدين إلى البشرية كلها.

تربية توافق الفطرة البشرية، وتتواءم مع النفس الإنسانية، ولا تحيد قيد أنملة عن الجبلة التي فطر الله الناس عليها.

---

(١) جزء من حديث ذكره السيوطي في الاتقان وقال أخرجه الترمذي والدارمي وغيرهما وسكت عنه. وكذا ذكره الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن. وتعقب كلام الترمذي مما يدل على اعتماده للحديث.

جاء القرآن، يربي الإنسان خليفة الله في الأرض، يربيه قلباً وروحاً، يربيه جسداً وعقلاً، ويربيه خلقاً وسلوكاً.

ويرتفع به إلى الأفق الأعلى، أفق الإنسانية، آخذاً بيده، حتى يحيله في النهاية صورة حية من تصورات القرآن للإنسان الكامل ويصنع منه طاقة كونية فعالة، تهيمن على الكون وتسخره لتحقيق الخلافة في الأرض.

ويجعل منه في النهاية قوة عزيزة أبية، لا تذل ولا تضعف، ولا تهن ولا تجبن، بل تواجه الأحداث في إيمان وثقة من عون الله العلي الكبير.

وتجاهد هذه القوة أعداء الله، وأعداء دينه، وأعداء البشرية كلها وهي مطمئنة إلى نصر الله.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ومن هنا كانت حكمة الله سبحانه وتعالى في نزول القرآن منجماً على رسول البشرية محمد ﷺ.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

نزل القرآن منجماً ليتدبر في عمق، وتنفذ تعاليمه بعد إقناع، ويكون للبشرية منهجاً ودستوراً، وقائداً ودليلاً.

يوجهها إذا بعدت، ويبصرها إذا أخطأت، ويأخذ بيدها بعيداً عن وعورة الحياة ومزالق الطريق.

وكان كل مسلم من جيل القرن الأول ـ جيل الصحابة ـ رضوان الله وسلامه عليهم ـ يشعر أن عين الله عليه وأن سمع الله إليه، وأن كل كلمة منه، وكل حركة، بل كل خاطر، وكل نية قد تصبح مكشوفة للناس يتنزل في شأنها قرآن على رسوله ﷺ.

وكان كل مسلم ومسلمة، من الجيل الأول، إذا حزبه أمر أو واجهته معضلة انتظر أن تفتح أبواب السماء غداً أو بعد غد ليتنزل منها حل لمعضلته، وفتوى في أمره وقضاء في شأنه.

أورد الإمام الترمذي بسنده عن معقل بن يسار، رضي الله عنه، أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله - ﷺ - فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها، حتى انقضت عدتها، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب.

فقال له: أكرمتك بها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً.

قال: فعلم الله - سبحانه وتعالى - حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فلما سمعها معقل قال: سمع لربي وطاعة، ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك. فزوجه إياها.

بماذا يفسر هذا العمل..؟

وعلى أي شيء يدل..؟

إن الحقيقة تقول: إنه يدل على الاستجابة الفورية لأمر الله سبحانه وتعالى والرجوع عن هوى النفس إلى حكم الله، والطاعة الكاملة له بلا تراخي أو فتور.

وكانت المرأة في الجاهلية تمر بين الرجال كاشفة صدرها، لا يواريه

شيء، وربما أظهرت عنقها، وذوائب شعرها، وأقرطة أُذنيها[1].

كانت المرأة تفعل ذلك، لأن قانون الجماعة لا يحرمه، وعرف البيئة لا يمنعه، حتى جاء أمر الله ـ سبحانه وتعالى، ونزل توجيهه لتربية الأمة الإسلامية، قال تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

نزلت هذه الآية فامتثلن لتوجيه الله وهديه، ولم تمتنع منهن واحدة عن الخضوع لأمر الله.

عن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: فذكرت نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة: إن لنساء قريش لفضلاً وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله وإيماناً بالتنزيل، لما نزل قول الله تعالى:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على زوجته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها فاعتجرت به، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ﷺ ـ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان[2].

لقد كانت كلمات القرآن بالنسبة لهم المنهج اليومي الذي يتلقاه المسلمون ليعملوا به فوراً، لا يتخلف أحد ولا يتباطأ إنسان، بل يتسابقون إلى ذلك

---

(١) ابن كثير في تفسيره جـ٣ ص ٣٨٤.

(٢) رواه أبو داود، وراجع تفسير سورة النور للأستاذ أبو الأعلى المودودي ص ١٥٩، ١٦٠ وفي ظلال القرآن سورة النور آية رقم ٣١.

ويتلقونه كما يتلقى الجندي في ثكنته، أو في ميدانه أمر القائد فيعيه ويفهمه ويقوم مبادراً إلى التنفيذ.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

«بينما أُدير الكأس على أبي طلحة، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي دجانة، ومعاذ بن جبل، وسهل بن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم من الخمر، إذ سمعت منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت[1].

قال: فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سلمة ثم خرجنا إلى المسجد»[2].

وعن أبي بريدة عن أبيه قال:

«بينما نحن قعود على شراب لنا، ونحن نشرب الخمر، إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ - فاسلم عليه، وقد نزل تحريم الخمر فجئت أصحابي فقرأت عليهم قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

«قال: وبعض القوم شربته في يده، شرب بعضها، وبقى بعضه في الإناء فأراقوا ما في كؤوسهم، ثم صبوا ما في باطيتهم وقالوا: انتهينا ربنا انتهينا ربنا»[3]. حرمت الخمر وهي أحب شيء إلى نفوسهم كما تروي كتب التاريخ،

(١) رواه الإمام أحمد، وذكره ابن كثير في تفسيره جـ٢ ص ٩٧.

(٢) رواه ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك.

(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٩٥.

حتى كانوا لا يستطيعون عنها فكاكاً، فهي رفيقتهم إذا أصبحوا، ورفيقتهم إذا أمسوا وكانوا يتجرعونها في الظعن والإقامة في الحل والترحال.

يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه:

«كنت صاحب خمر في الجاهلية، فقلت لو أذهب إلى فلان الخمار فأشرب. وظل عمر يشرب الخمر في الإسلام حتى نزل قول الله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

قال: اللهم بيّن لنا بياناً شافياً في الخمر، واستمر في الشرب، حتى نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

قال: اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر حتى نزلت آية التحريم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١].

قال عمر: «انتهينا، انتهينا»[1].

وهكذا حرمت الخمر، لأن القرآن يهدف إلى تربية جيل، يكون دائماً مرتبطاً بدينه وثيق الصلة بربه، مراقباً له في كل خطرة، في كل لحظة، في كل همسة. وكان يستهدف من وراء ذلك إيجاد اليقظة الدائمة، والصحوة المستمرة لهذا الجيل.

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي والنسائي ورواه أبو الحسن بن أحمد الواحدي في كتابه: أسباب نزول القرآن ص ٢٠١.

يقظة مستمرة في عقله.

وصحوة دائمة في وجدانه.

حتى يستطيع أن يؤدي تكاليف الخلافة، التي كلفه الله بها، يؤدي تكاليفها تجاه نفسه، ويؤدي ما عليه تجاه الجماعة التي يعيش معها، ويؤدي ما فرضه عليه ربه من فروض وواجبات. ولن يتم ذلك بالكامل ولن يستطيعه، وهو دائماً نصف يقظ ونصف مخمور.

ولقد استجاب المسلمون لأمر ربهم، ولم يحتج الأمر إلى إصدار قانون أو عدة قوانين، أو صرف ملايين الجنيهات كما فعلت بعض الدول الكبرى في مجتمعنا المعاصر، ولم توفق إلى تحريم الخمر.

لقد استجاب المسلمون لأمر ربهم في تحريم الخمر، واستجابوا له في الامتناع عما نهاهم عنه، وأصاخوا له في تكريم المرأة والرفق بها، والتسليم الكامل في إعطائها حقوقها كاملة، وبذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله، واعتبروا أن ما في أيديهم من مال أو عقار، هو عارية مردودة، وأن المال، مال الله، وأن الأرض لله يورثها مَنْ يشاء من عباده فكانوا يتسابقون في الإنفاق.

روى الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ عن أبي طلحة، سمع أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول:

«كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه «بئر حار» وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس: فلما نزل قول الله تعالى:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢].

قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وإن أحب أموالي إليَّ «بئر حار» وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى، فضمها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال النبي ﷺ: «بخ بخ ذاك مال رابح، ذاك مال رابح وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: «أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[١].

وجاءت آيات كثيرة في القرآن لتشجع المسلمين على التبرع والنفقة والصدقة. واشتراط القرآن على أولئك المنفقين من أموالهم في سبيل الله، أن يكون ذلك من أحب الأموال إليهم ومن أجودها.

ورباهم القرآن على أن المال، مال الله، وأن الرزق الذي في أيدي الوَاحد منهم هو رزق الله.

وكان مجرد إحساس الفرد أن ما في يده عارية محددة بأمد، ثم يستردها صاحبها الذي أعارها في الأجل المرسوم.

وكان مجرد استحضار هذه الحقائق كفيل وحده أن يخفف من الشره والطمع في داخل النفس البشرية، ويبعدها عن الشح والحرص، ويجعلها تترك التكالب المسعور في جمع المال، وبالتالي يملأها بالقناعة والرضى بما يعطيها الله، ويكسبها السماحة والجود بالموجود[٢].

(١) رواه الإمام أحمد عن روح عن مالك عن إسحاق بن عبد اللّه بن أبي طلحة عن أنس بن مالك. وروي أيضاً في الصحيحين، ورواه ابن كثير عند تفسيره هذه الآية.

(٢) ظلال القرآن: سيد قطب. بتصرف.

ومن هنا يطمئن القلب فلا يضطرب، ويقر الوجدان فلا يقلق، وتستريح النفس فلا تذهب حسرات على فائت، أو ضائع، لأن عمر الإنسان القصير المحدود ليست نهاية الحياة، ولا نهاية المتاع. قال تعالى:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

ولا يتحرق القلب سعاراً على المرموق المطلوب.

قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

ولا يتعالى صلفاً وغروراً بما أعطى. قال تعالى:

﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

فإذا أعطى الواحد من ماله شيئاً فإنما من مال الله أعطى، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وإذا قدم حسنة فإنما هي قرض الله يضاعفه له أضعافاً كثيرة، يضاعفه له في الدنيا، ويضاعفه له في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وليس المحروم الآخذ إلا أداة وسبباً لينال المعطي الواهب أضعاف ما أعطى من مال الله.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذا المعنى قد يتجاهله بعض الناس عن قصد أو غير قصد، وقد يغيب عن أذهانهم هذا المعنى، أو ينسونه في لحظة من لحظات الغضب والضيق فتنزل آيات القرآن الكريم لتذكر وتنبه.

وهذا ما حدث مع رجل الإسلام الأول أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - عندما قرر ألا يعطي «مسطح بن أثاثة» شيئاً من ماله، ولا ينفعه بنافعة أبداً.

ومسطح هذا كان من فقراء المهاجرين، وقريب لأبي بكر، وكان أبو بكر يعوله وينفق عليه. فلما كانت حادثة الإفك، خاض مسطح مع الخائضين، وتكلم بما لا يجوز.

وكان لأبي بكر أن يغضب من هذا.

يغضب لما أشاعه المنافقون.

ويغضب لما يردده بعض الرجال من المسلمين.

فكان قراره بحرمان مسطح مما كان يعطيه إياه.

ولم يمض كبير وقت على قرار أبي بكر هذا، حتى ينزل القرآن الكريم معاتباً لأبي بكر وأمثاله، وطالباً منهم أن ينفقوا على هؤلاء ويعطوهم ما كانوا يجودون به عليهم من قبل، ويستمع الصديق لحكم الله الذي تنزلت به آيات الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

فيقول الصديق: «بلى، ربَّنا، نحب أن تغفر لنا»[1].

ويعيد إلى مسطح ما كان ينفق عليه، ويحلف: «والله ما أنزعها منه أبداً».

وهكذا كان يتنزل القرآن الكريم لتنظيم حياة هذا الجيل، يتنزل في

(١) تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي.

الصغير والكبير، يتنزل ليضع الحلول الجذرية لكبريات المشاكل، ويرسم لهم صورة جديدة، ويتنزل ليضع لهم الحلول للمشكلات الفرعية، ويتنزل ليفصل بين الرجل وزوجته، ويتنزل ليفصل بين الرجل وابنته، ويتنزل لينقذ رجلاً يهودياً من تهمة توجه إليه.

وينصفه على رجل مسلم من جماعة الأنصار.

الأنصار الذين آووا ونصروا، وقدموا أرواحهم، وأموالهم في سبيل الله.

ولكن الأمر ليس أمر اليهودي.

وليس الأمر أمر الأنصار.

وإنما الأمر أمر تربية هذا الجيل الذي سيحمل الأمانة للبشرية كلها، الأمر إعلاء أمر الله وكلمته، وإقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أياً كانت الملابسات والأحوال.

والقصة كما ترويها كتب التفاسير[1]:

«أن نفراً من الأنصار، قتادة بن النعمان وعمه رفاعة، غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم، فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم «بنو أبيرق» فأتى الرجل صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال:

«إن بشير بن أبيرق سرق درعي».

«فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه: زيد بن السمين.

---

(١) كتاب أسباب نزول القرآن للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ١٧٢، وهناك أقوال لجماعة آخرين في الدر المنثور جـ٢ ص ٢١٥، وذكره الترمذي عند تفسيره هذه الآية.

«وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع، وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده. فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا:

«يا نبي الله: إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علماً، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك هلك»؟؟

«ولما عرف رسول الله ﷺ أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرّأ ابن أبيرق[1] وعذره على رؤوس الناس».

«وكان أهله قد قالوا للنبي ﷺ قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي: إن قتادة بن النعمان وعمه، عمدا إلى أهل بيت من أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة، من غير بينة ولا دليل.

«قال قتادة:

«فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فقال:

«عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة؟».

«قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال:

«يا ابن أخي، ما صنعت؟».

«فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال: الله المتسعان[2]. فلم يلبث أن نزل قول الله تعالى:

---

(١) رواه ابن جرير عن مجاهد أنه ابن أبيرق ص ١٧٦.

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٩].

وكما تنزل القرآن لإنصاف رجل يهودي على ما كان لليهود من تضليل للعقيدة وطعن في القيادة النبوية، وتشكيك في الوحي والرسالة.

ينزل القرآن ليبطل عادة جاهلية لا تليق بكرامة الآدمي، وينقذ المرأة العربية، والمرأة الإسلامية، والمرأة في كل زمان ومكان من الهوان والمهانة التي كانت وما تزال تقام في البلاد التي لا تحكم شرع الله.

روى الإمام أحمد بسنده(١) عن خويلة بنت ثعلبة قالت:

«فيَّ، والله، وفي أوس بن الصامت أنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١].

«قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه.

«قالت: فدخل عليَّ يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي.

«قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني.

---

(١) مسند الإمام أحمد.

«قلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. فواثبني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني.

«قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه.

«قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول:

«يا خويلة[1] ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه».

«قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما يتغشاه ثم سرى عنه.

«فقال لي: يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً ثم قرأ عليَّ:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١].

«قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة».

«قالت: فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

«قال: «فليصم شهرين متتابعين».

«قالت: فقلت: والله إنه لشيخ ما له صيام.

«قال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر».

«قالت: قلت: والله، يا رسول الله، ما ذاك عنده.

(١) هو أوس بن الصامت.

«قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بعرق من تمر».

«قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بعرق آخر.

«قال: قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك.

«قالت: ففعلت»[1].

وهكذا تم ميلاد جديد، لمجتمع جديد.

مجتمع له عقيدة تختلف عن كل العقائد التي عرفها الآباء والأجداد.

ومجتمع له نظام وقواعد يستمد أسسه وبرامجه من السماء لا من الأرض.

مجتمع العبودية فيه لله وحده.

والعقيدة أساس الأخوة.

والتعامل فيه ينبثق مباشرة من الإيمان بالله تعالى والتحاكم إلى شرعه.

ومن أجل ذلك ولأول مرة في تاريخ الإنسانية يوجد الإنسان العالمي، الإنسان الذي ينتمي إلى الأسرة الإنسانية كلها.

الإنسان الأتقى الذي يعمل لخير الناس جميعاً أسودها وأبيضها، ويكد ويعمل في سبيل إسعادها.

الإنسان الذي تمذهب بمذهب القرآن الكريم، واتخذه سلوكاً ومنهجاً وارتضاه قدوة ودليلاً.

الإنسان المؤمن: الذي يرى أن الناس كلهم خلق الله تعالى، فهم إخوة

---

(١) خرجه ابن ماجة في السنن، وخرجه البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وفي الترمذي أن الذي ظاهر سلمة بن صخر البياضي وأن النبي ﷺ قال له اعتق رقبة.

في الخليقة. وما داموا كذلك، فلن يفرقهم الجنس أو اللون، ولن يتفاضلوا بالعصبية أو القبلية، ولن يعود بعضهم بعرض زائل من مال أو عقار ولن يستعبد بعضهم بعضاً لأي سبب من الأسباب، فالناس كلهم سواسية.

يقول الرسول ﷺ:

«كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[1] والناس كلهم صائرون إلى الله في النهاية فهم إخوة في المصير.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦].

والناس كلهم من نفس واحدة فهم إخوة في الإنسانية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

والناس كلهم ينبغي لهم أن يعبدوا الله ويلتقوا في حماه، فهم إخوة في العقيدة قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١١٥].

وبهذا نجح منهج القرآن الكريم في توجيه الناس إلى خالقهم، وردهم إلى مولاهم، وأشعرهم بأنه قريب منهم.

وإذا كان ذلك كذلك..؟

فما هو الدين..؟ أهو ما يعتقده كل فرد..؟ وبذلك يختلف باختلاف

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

الأفراد والجماعات، أو أن المقصود بالدين هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وما هو العلم..؟أهو علم الفلك وعلم الطب، أو علم النفس وما يتصل بالاجتماعيات..؟ أو أن المقصود بالعلم ما جاء متوافقاً مع منهج الإسلام، والذي قال الله تعالى عنه:

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وما هي الحضارة..؟ أهي الحضارة في عالمنا المعاصر والتي لا تحلل ولا تحرم، ولا تقيم للإنسانية وزناً..؟ أهي حضارة الاغتصاب والقتل والتدمير..؟ أو أنها حضارة المثل العليا والأخلاق الفاضلة والقيم التي لا تتغير ولا تتبدل..؟

وأخيراً ما هي الثقافة في منهج الإسلام..؟



الدين في منهج الإسلام

يقول ابن منظور: الدين الجزاء والمكافأة، ودنته بفعله ديناً جزيته.

ويوم الدين يوم الجزاء. وكما جاء في الحديث: «كما تدين تدان» أي كما تجازي بفعلك، وبحسب ما عملت. قال خويلد بن نوفل الكلبي:

يا جار أيقن أن ملكك زائل وأعلم بأن كما تدين تدان

ودانه ديناً أي جازاه[1].

الدين في اصطلاح العلماء

قال ابن عباس وابن مسعود عن النبي - ﷺ -: الدين

١ - الجزاء على الأعمال والحساب بها. ويدل عليه قوله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

أي يجزيهم جزاءهم العادل، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق، ويومئذ يستيقنون مما كانوا فيه:

وقال تعالى:

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ عِبَادِهِۦمِنّمَن مَن﴾ [غافر: ١٧].

---

(١) راجع لسان العرب ١٣: ١٦٩ بتصرف.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٣٨].

وقال أيضاً: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٥٣] أي مجزيون محاسبون.

وفي الحديث: «الكيِّس من دان نفسه» أي حاسب.

٢ ـ الطاعة: قال ثعلب: دان الرجل إذا أطاع، والطوع الانقياد ويضاده الكره قال تعالى: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ [فصلت: ١١].

وقال أيضاً: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا﴾ [النساء: ١٢٥] أي طاعة.

وقد ورد الدين في القرآن الكريم بمعنى التوحيد والشهادة. قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣].

وقال أيضاً: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] أي التوحيد.

وبمعنى الحساب والمناقشة قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ٤].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١﴾ [المطففين: ١١].

وبمعنى حكم الشريعة قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] أي في حكمه.

وبمعنى السياسة قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي في سياسته.

وبمعنى الملة قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] أي الملة المستقيمة.

وبمعنى الإسلام قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وإذا كان الإسلام: هو إسلام الوجه لله، وإخلاص القلب والجوارح له وعبادة الواحد الأحد، وتفويض الأمر كله إليه فيوسف عليه السلام كان يدعو إلى الإسلام ويطلب من ربه أن يتوفاه على دين الإسلام.

قال تعالى على لسانه: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام يقرون بإسلامهم ويطلبون من نبيهم أن يشهد بإسلامهم. قال تعالى ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

وسحرة فرعون يحاجونه ويجادلونه في إفكه وكفره ويتساءلون لماذا ينقم فرعون عليهم ويهددهم بالقتل والصلب..؟ إنهم لم يرتكبوا إثما ولم يأتوا بجريرة.

فقط أسلموا الوجه لله وأنهم مسلمون وكل ما يرجونه من ربهم أن يتوفاهم على هذه الصفة لا يفتنهم عذاب فرعون أو جبروت أتباعه. قال الله تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٥ ـ ١٢٦].

فالإسلام إذن هو دعوة نوح عليه السلام، ودين إبراهيم الخليل، ومطلب إسماعيل الذبيح، والحقيقة التي يموت عليها أبناء يعقوب، والفكرة التي يتقبل الموت من أجلها أتباع موسى عليه السلام ويرفضون الحياة وزخرفها عند فقدها.

وإذا كان الدين هو هذا، وهو الذي أرسل الله به رسله، وجاءت به كتبه، أتكون الثقافة ـ منبثقة منه، ومنفذة له ومرتبطة به؟ أو أن الدين شيء ومنهج الثقافة الإسلامية شيء آخر؟.

* * *



العلم في منهج الإسلام

العلم ضربان:

١ ـ إدراك ذات الشيء.

٢ ـ الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه.

فالأول: هو المتعدي إلى مفعول واحد. قال الله تعالى:

﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والثاني: المتعدي إلى مفعولين نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: ٦٠] ـ إشارة إلى أن عقولهم قد طاشت.

وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. فلا بد من طلبه من المهد إلى اللحد، ولا بد من الضرب في فجاج الأرض بحثاً عنه.

والعلماء ورثة الأنبياء قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولن يحول بعد المسافة أو وعورة الطريق عن السعي لطلب العلم: اطلب العلم ولو بالصين.

والعلم في الإسلام يتناول كل موجود وكل ما لم يوجد فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر. فالعلم عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام.

ولهذا قال النبي ﷺ في فضل هذه العبادة: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[1] وقال أيضاً: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[2].

وإذا كانت رسالة الرسول ﷺ دعوة إلى العلم، فلا بد أن تكون القراءة، أن يكون العلم، أن تكون النتائج باسم المربي ﴿إقرأ باسم ربك﴾ [العلق: ١]. تعلم العلم والمعرفة باسم ربك، اضرب في فجاج الأرض باسم ربك، استخرج كنوز البحار وصارع الأمواج باسم ربك، ضع يدك على سلاحك لترد كيد الكائدين وتطهر الأرض من الغاصبين باسم ربك. اغمر نفسك في بحار المعرفة باسم ربك.

فلن يكون طلب العلم باسم بشر من البشر أو باسم فرد من الناس أياً كان هذا الفرد مصلحاً اجتماعياً أو زعيماً سياسياً أو مربياً عالمياً؛ فمن خرج عن هذا الطريق، أو انحرف عن هذا النهج، أو أخذ بعض الكتاب وترك بعضه، فهو خارج عن جو لا إله إلا الله.

فالعلم يجب أن يكون باسم الخبير الصانع، باسم الخالق المبدع الذي أوجد الجهاز الآدمي، وصنع أجزاءه ومركباته. وأوجد سمعه وبصره، وقدر حياته وموته، وحدد رزقه وأجله. لأنه وحده القادر على وضع ما يصلح حياته

---

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة ١٧ والترمذي في العلم ١٩.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٤٣ في العلم ـ باب فضل طلب العلم وقال: هذا حديث حسن غريب.

ويحقق سعادته ويملأ حياته بالأمن والاطمئنان، وخصوصاً في مجال الأخلاق، في مجال العبادات، في مجال التشريع والتقنين. فإن اختلطت علينا الأمور، وعميت علينا السبل، وانبهمت الطرق لجأنا إلى كتابه نستشيره ونستلهمه:

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وأهل الذكر هم أهل الله، هم الذين تمذهبوا بمذهب الإله، وتأدبوا بأدب القرآن، وتخرجوا من مدرسة الإسلام، وجلسوا إلى مائدة الرسول ﷺ وعبوا من علمه، ونهلوا من فيضه، واقتدوا بهديه، إنهم عباد الرحمن.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٨].

إنهم أهل الذكر. لا يتكبرون في الأرض. ولا يهتمون بلغو الحديث ولا يشغلهم لهو الحياة عن عبادة الله والذين يخشون ربهم ويخافون عقابه.

وهم ميزان عدل ليسوا من هواة الإسراف فيكونوا من أتباع الشيطان وليسوا من أهل الشح فيكونوا من أصحاب الكنوز.

ولكنهم تمذهبوا بقول ربهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

وهم أخيراً ملتزمون بلا إله إلا الله.

لا يدينون بالعبودية لغيره ولا يرجون النفع من سواه ولن تسترقهم زخارف الدنيا وبريق الجاه. إنهم جنود الله.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧].

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١].

ولعل سائلاً يقول: ما هذا الذي تدعُونا إليه وتبشر به؟

أترفض كل نتاج العباقرة الذين عبروا التاريخ؟

أنترك ثمار أفكارهم؟ أنغض أعيننا عن حضارة الأجيال؟

أنترك كل ما وصلت إليه قمة العلوم البشرية على مر العصور؟

ونقول: بأننا لا نرفض شيئاً يتفق مع جو لا إله إلا الله، ولا نترك شيئاً يتمشى مع أصول ديننا ويتفق مع دعوة نبينا، والرسول ﷺ يقول:

«الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها».

ونحن نستورد الآلة، نستورد المدفع والمصنع، ونستعمل الطائرة والصاروخ، وتأتينا عبر البحار الأدوات الهندسية والمعدات الطبية، ولن يشترط فيها أن تكون مصنوعة بأيدي مؤمنة أو مصممة (بلا إله إلا الله).

وإنما يكفي فقط أن نستعملها نحن باسم الله.

(لأن الآلة في ذاتها لا يمكن أن يكون لها دين ولا جنس ولا وطن، ولكن الهدف من استخدامها هو الذي يتأثر بأولئك جميعاً).

فالمدفع في ذاته إنتاج بشري ساهمت في تطويره وصنعه أجيال من البشرية متتابعة، ولكنك حين تستخدمه لن تكون مسلماً ولن تكون في دائرة لا إله إلا الله:

إذا استخدمته في الاعتداء على الآخرين.

إذا استخدمته في قتل الأطفال والنساء.
إذا استخدمته في تخريب الأرض وإشاعة الدمار فيها.
إذا استخدمته في إزعاج الآمنين واغتصاب أرضهم وديارهم.
فشرط استخدامه في الإسلام: أن يكون رداً لعدوان.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

وشرط استخدامه في الإسلام أن يكون إحقاقاً لكلمة الله في الأرض وأن يكون الدين كله لله.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤].

وقس على ذلك كل المخترعات الحديثة التي ساهمت البشرية في تطويرها وصنعها، وخدمت أغراضاً عدة في فجاج الأرض كاستخراج البترول والبحث عن المعادن.

أو في أعماق البحار للكشف عن كنوزه.

أو في سبحات الفضاء للتعرف على أسراره.

ولنضرب لذلك مثلاً: فالسينما في ذاتها إنتاج بشري، وتستطيع أن تستخدمها ولا تخرج بذلك عن جو لا إله إلا الله، ما دمت تستخدمها في عرض العواطف النظيفة والإنسانية الرفيعة وصراع الأجيال في سبيل الخير.

يمكن استخدامها في زيادة الانتاج الزراعي والحيواني، بعرض تجارب الآخرين في هذا الميدان والاستفادة من خبراتهم.

يمكن استخدامها في ميدان الصناعة والتطور «التكنولوجي»، بعرض نماذج حية من تسابق العقول في هذا المضمار.

يمكن استخدامها في تكتيك الحرب وخدع المعارك والاستفادة من تخطيط الآخرين في ميدان الحروب والقتال.

يمكن استخدامها في ميدان الطب والوقاية الصحية.

يمكن استخدامها في دور التعليم بمرافقه المختلفة.

يمكن استخدامها في كل ميدان من ميادين الحياة وفي كل هدف من أهدافها ما دمنا ملتزمين بكلمة لا إله إلا الله.

ولكننا لن نكون كذلك إذا استخدمت لعرض الأجساد العارية، وعرضها إثم ورؤيتها حرام، ومتابعتها تبعد عن روح الله.

لن نكون في جو لا إله إلا الله، ونحن نستخدمها لعرض الشهوات الفاجرة، والنظرات الداعرة، والإنسانية الهابطة، والمجتمع الذي تردى في الرذيلة، الرذيلة التي تسمى بمسميات مختلفة. مرة باسم الأخلاقيات. وكيف تكون كذلك وهي بعيدة عن وحي السماء.

وأخرى فكرية وهي لا تلتزم بكتاب الله تعالى، ولا تقتدي بهدي الرسول الكريم ـ عليه السلام.

وإذا كان كذلك.

أتكون الثقافة هي العلم: العلم الذي يبني ويقوم، ويشيد ويبني؟.

أو أنها غير ذلك وإن كان بينها وشائج قربى وصلات رحم؟

الحضارة في المدلول اللغوي

المعنى اللغوي هو: الإقامة في الحضر من مدن وقرى، بخلاف «البداوة» التي هي عبارة عن التنقل والإظعان بين البوادي والوديان. وعلى هذا فأصل دلالتها على الاستقرار الناشئ من إنبات الزراعة وإقامة الصناعة.

يقول ابن خلدون في مقدمته: «إن العلوم إنما تكثر حيث العمران، وتعظم الحضارة، والسبب في ذلك أن تعليم العلم ـ من جملة الصنائع ـ وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت أعمال أهل العمران من معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع، ومن تشوق بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها[1]».

فابن خلدون يرى أن الحضارة توجد حيث يوجد العمران. وتقاس حضارة الدول بمقدار ما يوجد فيها من أكاديميات للعلم والمعرفة، وما يقام على أرضها من صناعات عملاقة، وتطورات باهرة. وإذا كان ذلك كذلك فما حقيقة الحضارة في اصطلاح العلماء..؟

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ٣: ١١٢٤ تقديم وتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي.

الحضارة في اصطلاح العلماء

يرى بعض رجال الفكر في عالمنا المعاصر أن الحضارة: هي ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانبه ونواحيه، عقلاً وخلقاً، مادة وروحاً، ديناً ودنيا، فهي في إطلاقها وعمومها ـ قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور وتقلب الأزمان، وما صورت به علائقه بالكون وما وراءه. وهي في تخصيصها بجماعة من الجماعات في أمة من الأمم (تعد) تراث هذه الأمة أو الجماعة (فيها) ـ على وجه الخصوص ـ والذي يميزها عن غيرها من الجماعات والأمم. وهي بهذا المعنى (تكون) أعم من الثقافة التي تطلق على الجانب الروحي أو الفكري من الحضارة.

بينما تشمل الحضارة الجانبين (معا) الروحي والمادي، أو الفكري والصناعي، وكأنما لوحظ فيها أن النشاط البشري في مختلف جوانبه ومواهبه يكون في أرقى حالاته في الحواضر والمدن[١].

إن الدكتور محمد محمد حسين في نصه هذا يرى أن الحضارة بعامة هي ما يقوم به الإنسان أو مجموعة من البشر في عصر من العصور مما يرقى بتفكيرهم، ويجمل حياتهم ويصلهم بخالقهم، ويجعل الحياة رخاء أمامهم تزخر بكل متطلبات الفرد في رحلة الحياة الممتدة عبر الزمن.

والحضارة بهذا التصور عنده تشمل الثقافة وغيرها، والفكر الإنساني بجوانبه المتشعبة وتهويمات الشعراء، وإبداع الأدباء، وأصالة العلماء، وبراعة المخترعين.

وإذا كان الدكتور محمد محمد حسين قد عبر عن الحضارة العربية بهذا

---

(١) راجع الإنسان بين المادية والإسلام محمد قطب.

التصور، فإننا نرى في الجانب الآخر الشيخ أبو الحسن الندوي يقدم لنا تصوراً آخر عن الحضارة الغربية في تاريخها الطويل قائلاً:

«وكانت هذه الحضارة - بمعناها الواسع - مجموع عقائد ومناهج فكرية وفلسفات ونظم سياسية واقتصادية، وعلوم طبيعية وعمرانية واجتماعية وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الأوروبية التي تزعمت هذه الحضارة في رحلتها الطويلة، وكانت مظهر تقدم العلم البشري، وعلوم الطبيعة وعلم الآلات، والعلوم الرياضية، ومجموع نتائج جهود وعلماء وباحثين عبر القرون، فكانت مزيجاً من السليم والسقيم، والصواب والخطأ، في النتائج والأحكام»[1].

إن هذا التعريف الذي قدمه الشيخ الندوي عن الحضارة الغربية قد شمل الحياة البشرية كلها، بكل ما فيها من جوانب رحاب. فالحضارة من هذا المنطلق السياسة والحكم والاقتصاد والانتاج، والفلسفة والميتافيزيقا والعلوم الكونية والرياضية.

أي أن الحضارة الغربية في نظر هذا المفكر الإسلامي الكبير قد أحاطت إحاطة كاملة بكل متطلبات الفرد والجماعة، في عصر ما من العصور. والذي لا نستطيع تحديد بدايته أو الوقوف على نهايته.

ويطيب لنا بعد هذه الجولة في دهاليز الحضارة والتعرف على بعض أفكار للعلماء والمفكرين أن نختم هذه الجولة، بأهداف الحضارة والنتائج التي يمكن أن تجنيها البشرية من قيامها.

---

(١) موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية ص ١٠.

أهداف الحضارة في المجتمع الإسلامي

١ ـ أتكون تلك الأهداف إقامة المجتمع الذي يحده التكافل الاجتماعي ويرسي قواعده الترابط والتآلف والتعاون بين أفراده. .؟

٢ ـ أتكون تلك الأهداف هي إقامة المجتمع المتطور تكنولوجياً، والذي يزخر بكل وسائل الإنتاج ويحاط أفراده ـ على اختلاف طبقاتهم بسياج من الرفاهية والنعيم. .؟

٣ ـ أتكون تلك الأهداف هي إقامة شرع الله كما جاء في كتابه وبلغه خاتم رسله، وإرساء قواعد الإسلام الصافية على أرضه، تلك القواعد التي تجمع ولا تفرق، وتوحد ولا تشتت؟

إن الشيخ محمد المبارك يرى أن غاية الحضارة التي تتطلع إليها البشرية في عصورنا الراهنة هي:

«الارتفاع بالحياة الإنسانية كلها، والتي تشمل فيما تشمل: الحياة الفكرية والعقلية، والحياة المادية والعملية، والحياة النفسية والخلقية، والحياة الاجتماعية والفردية».

ويقول: «إن الحضارة الصالحة الخيرة هي التي ترتفع بهذه الجوانب كلها، وتقيم فيما بينها ميزاناً للعدل الذي لا يميل عنه يمنة ولا يسرة، ولا ينحرف عن طبقة لحساب طبقة أخرى، فالناس لا يتمايزون عن طريق الجنس، ولا يتفاضلون عن طريق الغنى، فالكل من آدم، وآدم من تراب».

هذه هي حضارتنا، حضارة الإيمان والإسلام حضارة الخلق والمثل العليا، حضارة التعمير والبناء.

حضارة الخلق والإبداع حضارة السلام والوئام والحب.

الحضارة التي تجعل رجلاً كعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقطع التلبية وهو في طريقه إلى أرض النور عندما لمح كوخاً في الطريق.

فقيل له: لم قطعت التلبية، يا أمير المؤمنين..؟

فقال: خشيت ألا يجيب الله دعائي وهذا الكوخ على الطريق.

لقد قطع عمر التلبية لينبه الأمة الإسلامية أن الله لن يقبل دعاءهم وبينهم فقير محتاج، لقد قطع عمر التلبية لينقذ الأغنياء من شح الأنفس ومن كزازة الفطرة لينقلهم مباشرة إلى روح الأخوة الإسلامية.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الحديد: ٧].

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

إنها حضارة لا إله إلا الله.

والذي يقرر بأن محمداً رسول الله لا بد أن يتشبه به في حلمه ورحمته في فصاحته وقوته، في إنسانيته وشفافيته.

ولقد كان الرسول ﷺ قوياً في نفسه. يقول عندما فاوضه عمه في أمر الدعوة:

«والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أقتل دونه».

وقوياً في روحه لأن الذي علمه: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾[النجم: ٦].

وقوياً في أدبه لأن أدبه من عند الله: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وقوياً في بلاغته لأن القرآن حجته ومعجزته.

يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقوياً في مجتمعه وبين أصحابه.

يقول الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

والذي يتابع الرسول ﷺ لا بد وأن يكون قوياً في جسمه، قوياً في نفسه، قوياً في روحه.

قوياً في جسمه لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

والرسول عليه السلام يقول: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

ويحرص على إعداد المسلمين الأقوياء وتنشئة أبنائهم على الفروسية والقوة.

فيقول: «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل».

وقوياً في نفسه: فلا تغلبه مغريات العصر ولا تسيطر عليه شهوات النفس، فيكون ضابطاً لنفسه لا مضبوطاً لها ويكون قائداً لزمامها لا مقوداً لها.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

قوياً في نفسه: فلا تنال منه الخطوب ولا تهزه النكبات، ولا يقهر إرادته تجبر المتجبرين وتسلط القاهرين.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقوياً في روحه لأنه يؤمن بالغيب.

والإيمان بالغيب صفة المؤمنين الأقوياء الذين يؤدون أوامر الله فيكون لهم النجاح والفلاح.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٢ ـ ٥].

وقوياً في روحه لأن التقوى دينه.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

وقوياً في روحه لأنه يتوكل على ربه.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقوياً في روحه لأنه يؤمن بأن لكل أجل كتاباً.

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقوياً في فكره لأنه تتلمذ في مدرسة الرحمن، وتخرج في مدرسة القرآن.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

فلن يؤثر فيه دجل المدجلين، ولن تأخذ بلبه أباطيل المحرِّفين وهو من أجل ذلك بعيد عن الانحرافات الفكرية التي تهدم ولا تبني، وتدمر ولا تعمر، وتبعد البشرية عن شفافية الإيمان ورفاهية الإسلام.

فإن أراد الفرد المسلم فلسفة الحق والعدل.

إن رغب في شريعة الحب والخير.

إن أراد تنظيماً للمجتمع على أساس الفضيلة.

إن أراد تربية للأمة على منهج الأخلاق.

إن أراد إعداداً لقوة.

إن أراد تخطيطاً لمعركة.

إن أراد تعميراً وبناءً.

إن أراد تشييداً وإبداعاً.

إن أراد معرفة لا تضلل وثقافة لا تنحرف بأصحابها.

إن أراد سياسة للأمة، ومعرفة بتاريخ الشعوب، ودراية بأحوال الأمم.

إن أراد ذلك كله وجده في كتاب الله.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ عَلَىٰأَلَا بِلِقَآءِ بِلِقَآءِ﴾ [الأنعام: ٣١].

وأخيراً: إذا نطق اللسان بالشهادة، وصدق بها القلب، والتزمت بها الجوارح.

إذا فعل المسلم ذلك أيكون قريباً من ربه؟

أيتلاشى البعد بينه وبين الله..؟

أيقول العبد: يا رب، فيجيبه رب العزة بقوله: «لبيك يا عبدي»؟

أيمكن ذلك..؟ وهل في مقدور الفرد أن يحققه..؟

وهل هناك سابقة تشير إلى ذلك..؟ أم أن هناك مسافات لا تقطع..؟ وبعداً لا ينتهي..؟

أيمكن أن يترك الفرد الكون إلى خالق الكون..؟

إذا أردنا أن نعرف ذلك فلنقطع رحلة أخرى إلى رحاب الله.

* * *

الثقافة في منهج الإسلام

الثقافة عند علماء اللغة

لا شك أن لفظ الثقافة من الألفاظ المستجدة وبالتالي لم يكن لها عند علماء اللغة المدلول الذي ينطبق عليها في عالمنا المعاصر. يستوي في ذلك صاحب القاموس المحيط، وصاحب أساس البلاغة وصاحب الموسوعة الضخمة: لسان العرب وغيرهم. ويطيب لنا أن نستعرض سوياً التعريف الذي أورده صاحب «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» عند حديثه عن مادة «ثقف».

قال: ثَقُف ككرُم يكرُم، وكفرِح يفرَح ثَقْفَاً وثَقَفاً وثقافة: صار حاذقاً خفيفاً فَطِناً. فهو ثِقْف وثَقِف.

وثقفه: كسمعه صادفه أو أخذه أو ظفر به، أو أدركه ببصره لِحذْق في النظر. ورمح مثقَّق: مقوَّم.

ثم تجوز به فاستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة[1] كقوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

ويقول صاحب «المفردات في غريب القرآن»: الثقف: الحِذْقُ في إدراك الشيء وفعله، ومنه استعير المثاقفة، ورمح مثقف أي مقوَّم[2].

---

(١) راجع بصائر ذوي التمييز ٢: ٣٤٧.

(٢) راجع المفردات في غريب القرآن ص ٧٩.

ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧].

وقوله أيضاً: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦١].

والمستعرض لكتب اللغة لا يجد زيادة عما ذكره محمد بن يعقوب الفيروزابادي[١]، ولا يخرج كما سطره أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني[٢].

وإذا كان ذلك كذلك، فماذا يقول العلماء في عصرنا الراهن عن الثقافة في اصطلاحاتهم؟

فالثقافة عند مالك بن نبي الكاتب الجزائري المعروف في كتابه: «شروط النهضة»: مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه. والثقافة، على هذا، هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته[٣].

ومن خلال هذا التعريف نرى أن الثقافة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتربية التي يكتسبها الفرد من خلال بيئته الأولى، ومن خلال ما ينهله من معاهد التعليم المختلفة.

والثقافة عند علماء الاجتماع هي:

---

(١) عالم من أئمة اللغة والأدب وكان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير أشهر كتبه: القاموس المحيط، وبصائر ذوي التمييز، وسفر السعادة وغير ذلك توفي عام ٨١٧هـ.

(٢) الحسين بن محمد بن الفضل أبو القاسم من أهل أصبهان اشتهر حتى اقترن بالإمام الغزالي من كتبه: محاضرات الأدباء والذريعة إلى مكارم الشريعة، والمفردات في غريب القرآن توفي عام ٥٠٢هـ.

(٣) شروط النهضة مالك بن نبي.

أ) ـ ما يتلقاه الفرد عن الجماعة من مظاهر الفنون والعلوم، والمعارف والفلسفة والعقائد.

ب) ـ النماذج المختلفة التي يصب فيها الأفراد سلوكهم وتصرفهم.

ج) ـ الطرق التي يوجدها أي مجتمع لسد حاجاته الأساسية، ولتقوم بتنظيم علاقاته الاجتماعية.

ولقد عبر عن ذلك العالم الكبير (تيلر) بقوله: الثقافة: ذلك الكل المعقد الذي ينطوي على المعرفة، والعقائد، والأخلاق، والقانون، والعرف، وغير ذلك من القدرات.

ونستطيع أن نقول إن الثقافة عند علماء الاجتماع تشمل الحياة بأسرها بكل ما فيها من جوانب رحاب، والتي تغطي كل نشاطات الأفراد والجماعات.

والثقافة في منهج الإسلام: هي ذلك الكم الهائل الذي يعتنقه الفرد من خلال التزامه بتأدية تعاليم دينه، والتزامه بكل ما أمر به الدين أو نهى عنه، في مجال العبادات والمعاملات، في السياسة والحكم، في تعمير الكون، والاستعداد للآخرة. نقول ذلك، لأن الثقافة في منهج الإسلام منبثقة منه وتقام ركائزها على أصوله، ولا تخرج عما أمر به، ولا تتجاوز عما نهى عنه.

خصائص الثقافة الإسلامية

تمتاز الثقافة الإسلامية بالعديد من الخصائص المتميزة التي تجعلها متفردة عن الثقافات الأخرى التي تعتمد على الجهد البشري والعقل الإنساني في معطياتها وقواعدها. ومن هذه الخصائص:

١ ـ ارتكازها على عقيدة التوحيد

ترتكز الثقافة الإسلامية ارتكازاً كاملاً على عقيدة التوحيد، التوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ من عند ربه. توحيد الخالق فلا إله إلا الله.

وتوحيد العقيدة فلا دين إلا الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وتوحيد البشرية: كلكم لآدم وآدم من تراب.

٢ ـ ارتكازها على عقيدة التحرير

وجاء الرسول لتحرير الوجدان البشري.

تحريره من الخارج.

فما لأحد عليه غير الله من سلطان.

وما من أحد يميته أو يحييه إلا الله.

وما من أحد يملك له ضراً ولا نفعاً.

وما من أحد يرزقه من شيء في الأرض ولا في السماء.

وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والله وحده هو الذي يستطيع والكل سواه عبيد.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

فالخوف على الرزق ليس من الإسلام.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

والخوف على الجاه، والخوف على المنصب، والخوف على الوظيفة ليس من الإسلام.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

وجاء الرسول ﷺ لتحرير الوجدان البشري من الداخل: تحريره من أسر الأولاد.

وتحريره من أسر الزوجات.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وتحريره من حب الشهوات، وتحريره من المطامع والرغائب ونقط الضعف: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥﴾ [آل عمران: ١٥].

وبتلك المبادئ.

التوحيد، والتحرر، استطاع محمد بن عبدالله ﷺ أن يخلق من رعاة

الإبل أساتذة، يختطون من شؤون السياسة والتنظيم الاجتماعي ما تعمل الدول جاهدة للوصول إليه.

لقد تحرر وجدانهم من عبادة أحد غير الله.

فإذا خالد بن الوليد الذي كان يجسد لأصنام قريش ويطوف حولها يحمل معوله ويحطم تلك الأصنام.

يحطمها باليد التي كانت تقدم لها القرابين بالأمس.

ويهتف شعراً:

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ويتحرر وجدانهم من حب الدنيا والرغبة في المال.

حتى رأينا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يقوم بتجهيز جيش العسرة.

وقال الرسول ﷺ تمجيداً لهذا العمل: ما على عثمان ما يفعل بعد ذلك[١].

ويتبرع أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجميع ماله لتحرير الرقيق من أسر قريش.

تحريرهم من رق العبودية.

وتحريرهم من رق الألوهية الزائفة.

ومساهمة في نشر دين الله.

وعندما يسأله رسول الله: ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر؟

يقول: تركت لهم الله ورسوله.

---

(١) رواه الترمذي في مناقب عثمان رضي الله عنه.

ويتحرر وجدانهم من المطامع والرغائب ونقط الضعف.

دارت إحدى المعارك بين الإيمان والكفر، واستطاع علي بن أبي طالب - كرَّم الله وجهه - أن يتمكن من أحد رجالات الكفر فجذبه من على فرسه وألقى به أرضاً.

وسلَّ الإمام عليّ سيفه ليحزّ رقبته ولكنه لم يفعل.

ورآه بلال مؤذن الرسول عليه السلام، فواجهه بالملامة.

وقال له: ويلك يا عليّ لِمَ لَمْ تقتله؟

ويجيب الإمام الورع الذي يملأ الإيمان كل جارحة من جوارحه: يا بلال، لقد بصق في وجهي فخشيت أن أقتله فأكون قتلته غضباً لنفسي لا لله.

لقد صدق المرحوم مصطفى صادق الرافعي عندما قال: كانوا يحملون سيوفهم ومن وراء سيوفهم أخلاقهم، فكأن سيوفهم نفسها ذات أخلاق.

وحررهم من أسر الخصومة والجور.

يدخل قاتل يزيد بن الخطاب على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يقسم الغنائم.

فيشيح عمر عنه بوجهه.

فيقول له القاتل: أتكرهني، يا عمر؟

فيرد عليه: نعم كما تكره الأرض الدم.

فيقول القاتل: أمانعي إذن حقي؟

ولكن عمر الرجل العادل يقول له: أما هذه فلا.

وهنا يقول القاتل: إذن لا أعبأ بحبك ولا بكرهك فهذا شيء تعبأ به النساء.

لقد تمذهب عمر رضي الله عنه بمذهب الإسلام.

وتأدب بأدب القرآن.

وامتثل لقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

إنهم أبناء أمة التوحيد.

وأتباع محمد ﷺ.

وأحباؤه.

أدَّبهم بكتاب ربه.

وصنعهم على عينه.

ثم وضع كل واحد في محله، فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً.

وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يملي على العالم إرادته.

وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ومن هذه النخبة الممتازة صنع أمة الجهاد.

أمة الأبطال والفرسان.

أمة تحارب الإلحاد والشرك والفوضى.

أمة تحارب التخنث والعبث والإباحية.

أمة تربي أبناءها على الصحوة واليقظة والاستعداد.

أمة ترفض التبعية والانقياد لغير الواحد الأحد.

كانوا دائماً في حرب أو على أهبة حرب.

يدخل ربعي بن عامر الصحابي الجليل على رستم قائد جيش الفرس فيقول له رستم: ما جاء بكم إلى بلادنا؟

فيرد عليه: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فمن قبل ذلك منا، قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن قاتلنا قاتلناه حتى نفضي إلى وعد الله.

ويسأل رستم: وما وعد الله الذي وعدكم إياه؟

فيجيبه الصحابي: الجنة لشهدائنا والظفر لأحيائنا.

ويعود الوفد إلى قائد المسلمين سعد ليخبره أنها الحرب، ويقف في جنده خطيباً مستهلاً خطابه بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وتدور المعركة ويحمى وطيسها.

وتهاوى جنود الفرس، وفروا هاربين عندما رأوا مصرع قائدهم.

وطاردهم الجيش المسلم حتى «المدائن»، فدخلوها ليحملوا تاج كسرى وبساطه وهو يساوي مئات الألوف من الدنانير، فلا تعبث به يد ولا تشح عليه نفس، ثم يسلمونه إلى الأمير إلى خليفة المسلمين فيتعجب ويقول:

إن الذين أدوا هذا لأمناء.

أمناء على دينهم حتى يبلغوه.

وأمناء على شريعة ربهم حتى يبينوها.

وأمناء على أموال الناس وأعراضهم.

وأمناء على أرضهم وديارهم.

وما ظنك بجيش يفرض عليه دينه أن يؤدي الصلاة جماعة في المعركة؟

أراه حرياً أن يجاوز الحد إذا قاتل؟

أو يجانب الوفاء إذا عاهد؟

ما رأيك في جيش ينصحه قائده وهو على أهبة المعركة فيقول:

«آمركم بتقوى الله على كل حال، فإنها أفضل العدة على العدو.

«وأقوى المكيدة في الحرب.

«وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه.

«وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله.

«وإلا ننصر عليهم بفضلنا وديننا لم نغلبهم بقوتنا.

«واعلموا أن عليكم في سيركم حَفَظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيله.

«ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا.

«فرب قوم سلط الله عليهم من هم شر منهم كما سلط الله على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله - كفار المجوس.

﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]».

فالجيش المحارب لن يجهز بالعدة والعدد فقط.

الجيش المحارب لن يجهز بالسلاح والرجال فحسب.

فقد يكون جيش الأعداء أكثر عدداً وعدة.

قد يكون أكثر رجالاً وعتاداً.

وما أكثر السلاح والرجال عند الأعداء.

ولكنه يسلحهم بسلاح لا يهزم.

يسلحهم بسلاح الفوز والنصر.

يسلحهم بسلاح لا يقهر.

هو سلاح التقوى.

فقد تتحطم القوة المادية، وتتحطم القوة الضاربة، وتنهار القلاع والحصون أمام هجمات العدو.

ولكن يبقى مع الجيش الإسلامي شيء لا يستطيع العدو أن يصل إليه أو ينال منه.

هو التقوى.

هو الإيمان.

هو الروح.

نعم الروح الإسلامي والمد الإسلامي الذي يجعل قائد الروم ينضم بجنوده إلى صفوف المسلمين.

لقد بهرت عبقرية «خالد» قواد الروم وأمراء جيشهم مما حمل أحدهم واسمه «جرجه» على أن يدعو خالداً للبروز إليه في إحدى فترات الراحة بين القتال.

وحين يلتقيان، يوجه القائد الروماني حديثه إلى خالد قائلاً:

«يا خالد، أصدقني، ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب..؟

هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاك إياه، فلا تسلُّه على أحد إلا هزمته؟

«قال خالد: لا.

«قال الرجل: فبم سُمِّيتَ سيف الله؟

«قال خالد: إن الله بعث فينا رسوله، فمنا مَنْ صدَّقه ومنا مَنْ كذب وكنت فيمن كذب حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله فبايعناه.

«فدعا لي الرسول، وقال لي: أنت سيف من سيوف الله، فهكذا سُمِّيتُ سيف الله.

«قال القائد الروماني: وإلام تدعون؟.

«قال خالد: إلى توحيد الله وإلى الإسلام.

«قال: هل لمن يدخل في الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر؟

«قال خالد: نعم وأفضل.

«قال الرجل: كيف وقد سبقتموه؟.

«قال خالد: لقد عشنا مع رسول الله ﷺ، ورأينا آياته ومعجزاته وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم في يسر.

«أما أنتم يا مَنْ لم تروه ولم تسمعوه ثم آمنتم بالغيب، فإن أجركم أجزل وأكبر إذا صدقتم الله سرائركم ونواياكم.

«وصاح القائد الروماني، وقد دفع جواده إلى ناحية خالد، ووقف بجواره: علمني الإسلام يا خالد..

وأسلم.. وصلى لله ركعتين لم يصلّ سواهما، فقد استأنف الجيشان القتال.. وقاتل «جرجه الروماني» في صفوف المسلمين مستميتاً في طلب الشهادة حتى نالها وظفر بها»[1].

يا ترى عندك ألقى خبراً	عن أناس بصعيد مجدب
من رعاة الشاء عاشوا زمناً	لم يسيروا للعلا في موكب
أدركوا الذلة ذاقوا مُرّها	عرفوا بطش القوي الأجنبي
ثم في يوم أبيّ مشرق	جاءهم بالمجد والنور نبي
لم يزل في خاطري أن الذي	قوّض الرومان بالرمح أبي
كيف لا أذكر أجداداً لهم	فتكة الإعصار عند الغضب
وجواداً قبلت حافره	لجة البحر تجاه المغرب
وملوك الصين تهدي تربها	لفتانا في صحاف الذهب

ويطالب القائد جنوده أن يفروا من المعاصي.

ويفروا من الذنوب حتى يتجهوا إلى الله بقلب سليم.

لأن الذنوب بريد الهزيمة.

وعقاب الله ينزله على عباده باقترافهم الذنوب.

يقول الله تعالى:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ولقد كان الجانب الأخلاقي الشغل الشاغل لقادة المسلمين.

---

(١) رجال حول الرسول للأستاذ خالد محمد خالد.

وإذا حلت الهزيمة بأحدهم.

أخذ يسأل نفسه وجنوده من حوله:

لماذا خسرنا المعركة؟.

هل فيكم مَنْ عصى الله؟.

هل فيكم مَنْ خالف أمر ربه؟.

هل فيكم مَنْ ترك سنة من سنن رسوله، فإن لم يجدوا واحداً منها انتقل إلى الأسباب الفنية والمادية.

انتقل إلى «استراتيجية» المعارك وخدع الحروب.

كتب أندره موروا في كتابه «انهيار فرنسا في الحرب العالمية الثانية» يقول: «من أهم الأسباب انهيار فرنسا هو تفسخ الشعب الفرنسي نتيجة لانتشار الرذيلة بين أفراده».

ولقد عالج «الجنرال» ديجول هذه الناحية في فرنسا.

وأحست اليابان الحديثة، بعدما قطعت شوطاً في الحضارة والتقدم، أن شبابها بدأ يميل للهو والعبث ويتجه إلى الرذيلة والكسل.

فكيف عالجت المشكلة؟.

لم تتجه إلى الشرق والغرب لتستورد منهما الحلول.

ولم تلجأ إلى علم النفس لأن نظرياته متقلبة متباينة.

ولم تلجأ إلى حلول المخمورين والمتهوسين والعلمانيين.

بل لجأت إلى الدين مباشرة.

لجأت إلى الدين كعامل من عوامل التوجيه والقوة.

فأصدرت القوانين بألا يوظف شاب في وظيفة عامة إلا بعد أن يدخل

المعبد ويمارس فيه رياضة روحية عنيفة، ويستوعب من الكهنة تعاليم «بوذا» العظيم[1].

إن انهيار الأمم في ساحة الحرب.

وانهيارها في ميدان الحياة مرده إلى الرذيلة والترف.

والقرآن الكريم يؤكد هذه النظرية بقوله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

وكان من بعض أسباب انهيار العالم القديم أمام ضربات المسلمين:

التفسخ والانحلال.

التفسخ الذي شمل ضروب الحياة.

والانحلال الذي سرى في أوصال تلك الأمم.

ومن أجل ذلك انهارت دولة الفرس.

وانهارت دولة الروم.

إنهارتا أمام ضربات الرجال.

الرجال الذين تربّوا في مدرسة الإسلام.

الرجال الذين يصفهم رجل من قبيلة قضاعة لقيصر الروم فيقول: هم رهبان بالليل فرسان بالنهار، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجموه إقامة للحد.

---

(١) رجال مجاهدون للأستاذ توفيق محمد. بتصرف.

فقال القيصر: «لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها».

ويقول هرقل لأبي سفيان عندما وصف له الرسول ﷺ:

«إن كان حقاً ما تقول فسيملك موضع قدمي هاتين».

وتحقق ما تنبأ به هرقل.

فإن الجيش الإسلامي بقيادة العمالقة الذين تربوا في مدرسة الإسلام انداح في أربعة أركان الأرض، حتى كأن الأرض كانت تطوي تحت أقدامهم، كما يقول بعض المؤرخين.

٣ ـ ارتكازها على الحب وبعدها عن الكره.

من ذلك أن صانع الثقافة محمد ـ ﷺ ـ من أول يوم نزل عليه الوحي، فكر في تربية الرجال، وفكر في صنع الأبطال، وفكر أيضاً في إقامة القيادة، وأخذ في تربية هؤلاء. أخذ في تربيتهم بالقدوة والمثل وأخذ في صنعهم بالتجربة والعمل، وأخذ في إقامتهم بالمعاناة والصبر، وتحمل الأذى والشدائد حتى قال وهو واقف بجوار حائط بني ثقيف:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي».

ولم تكن عملية التربية أو صنع الرجال عملية سهلة، ولكنها كانت شاقة مرهقة، لأنها عملية إخراج البشرية كلها من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وإخراج التائهين من ضيق الدنيا إلى سعتها، وإخراج الضعفاء من جور الكهان إلى عدل الإسلام.

وبدأت النفوس تتعرف على هذا الداعي الجديد، ولم يكن غريباً عليهم

أو بعيداً عنهم، وأخذت النفوس تتجه إليه وتتعلم على يديه، وتحبه وتتفانى في هذا الحب.

وانجذبت إليه النفوس والقلوب، انجذاب الحديد إلى المغناطيس كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد، وأحبه رجال أمته وأطاعوه وآثروه على أنفسهم وأهلهم ومالهم وولدهم.

من هنا كانت الثقافة الإسلامية في كل عصورها، وفي كل أدوارها قائمة على الحب الكبير الذي يبني ولا يهدم، ويشيد ولا يهمل، حتى أصبحت صرحاً عملاقاً نظمت الدنيا، وعملت على تهذيب الحياة وإقامة العدل والحب بين الناس جميعاً.

ويطيب لنا أن نقدم بعض النماذج من مدرسة الحب التي حفلت بها الثقافة الإسلامية.

نَماذج مِنْ مَدْرَسَةِ الحُبّ

وُطئ أبو بكر بن أبي قحافة في مكة يوماً بعد ما أسلم، وضرب ضرباً شديداً ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين.

وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكّون في موته فتكلم آخر النهار.

فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟.

فعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: أنظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقالت: والله ما لي علم بصاحبك.

فقال: إذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل.

فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله.

قالت: لست أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت.

قالت: نعم.

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل، وأعلنت الصياح.

وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟.

قالت: هنا أمك تسمع؟.

قال: فلا شيء عليك منها.

قالت: سالم صالح.

قال: أين هو؟.

قالت: في دار ابن الأرقم.

قال: فإن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ.

فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ[1].

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ ص ٣٠.

إنه أبو بكر الصديق. أول مَنْ آمن من الرجال، وصاحب الرسول في الغار ورفيقه في الهجرة إلى يثرب، والمتبرع بجميع ماله من أجل نشر دين الله. وعندما سأله الرسول ﷺ: ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر؟.

فيقول الرجل الذي يسيطر الإيمان على كل جارحة من جوارحه: «تركت لهم الله ورسوله».

خرجت امرأة من الأنصار قُتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحد مع رسول الله ﷺ.

فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟.

قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين.

قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته:

قالت: كل مصيبة بعدك جلل[1]؛ إنها لم تولول ولم تفقد صوابها، ولم تدع بدعوى الجاهلية. إنها آمنت إيماناً لا تزعزته الجبال أن قتلاها في الجنة عند مليك مقتدر. ووعت قول ربها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

إن قتلاها أدّوا ما كلفوا به وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

أما الرسول ﷺ فخسارة المسلمين فيه عظيمة. لا بد من بقائه حتى يبلغ رسالة ربه، ويتم نور الله.

ومن هنا كانت كلمتها الصادقة «كل مصيبة بعدك جلل».

وقدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة ـ زوج الرسول ﷺ ـ فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه.

---

(١) رواه ابن إسحاق في المغازي ورواه البيهقي مرسلاً.

فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟

قالت: «بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس»[1].

هكذا فعلت الفتاة العربية مع أبيها جابهته بكلمة حق، وخرقت القاعدة العربية: كل فتاة بأبيها معجبة. وصفعته بحقيقته ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وما دام الإيمان لم يخامر قلبه وكلمة التوحيد لم يجر بها لسانه فهو نجس حتى يتطهر.

وإذا كان ذلك كذلك، فمحال أن يمس هذا الفراش فضلاً عن أن يجلس عليه، حتى ولو كان هو الوالد الذي له حق التربية والتوجيه.

قال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه بعدما رجع من الحديبية: «أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى وقيصر، والنجاشي والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم يدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له»[2].

ليس الحب فقط، وليس التعظيم والاحترام لرسول الله ﷺ، رسول الله ﷺ الذي أخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان، ولكن هناك ما هو أعمق من ذلك كله، إنه بذل الأرواح رخيصة فداء لرسول البشرية:

---

(١) سيرة ابن هشام ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة.

(٢) زاد المعاد جـ٣ ص ١٢٥.

«رفعوا خبيباً ـ رضي الله عنه ـ على الخشبة. ونادوه يناشدونه، أتحب أن محمداً مكانك؟.

قال: «لا، والله العظيم، ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه. فضحكوا منه»[١].

وترس أبو دجانة يوم أُحد على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك[٢].

فعل ذلك حتى ينجو رسول الله، وإذا نجا نبي البشرية فلا يبالون بعدها إن وقعت السهام على ظهورهم أم على بطونهم.

وعندما قال الرسول ﷺ يوم بدر: «أشيروا علينا أيها الناس». قال سعد ابن معاذ ـ رضي الله عنه ـ:

«إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت وصل حبل مَنْ شئت، واقطع حبل مَنْ شئت، وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلَّف منا رجل واحد»[٣].

إنهم معه في الرحيل والإقامة. في الحب والكره، في الشدة والرخاء إنه يملك الأولاد والأموال والمهج والأرواح، إنهم معه حيث سار. فلن يقولوا له كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

(١) البداية والنهاية جـ٤ ص ٦٣.
(٢) زاد المعاد ص ١٣٦.
(٣) زاد المعاد جـ٣ ص ١٣٠.

بل قالوا له: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون».

إنهم على السمع والطاعة، يأتمرون بأمره، ولا يقطعون برأي يخالف ما يدعو إليه.

نهى الرسول ﷺ أهل المدينة عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك. أمر بمقاطعتهم فلم يجرؤ أحد من أهل المدينة على الحديث معهم.

يقول كعب بن مالك:

«نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فاجتذبنا الناس أو قال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي نفسي، الأرض فما هي الأرض التي أعرف. إلى أن قال: حتى إذا طال عليّ من جفوة المسلمين شبت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحب الناس إليَّ فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ على السلام.

«فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟. فسكت فعدت فناشدته، فسكت فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيني وتوليت. وكان من طاعته أيضاً وهو في موضع عتاب وجفوة أن رسول الله ﷺ يأتيه ويقول له:

«إن رسول الله ﷺ يأمر أن تعتزل امرأتك».

«فقال: أطلقها أم ماذا أفعل؟.

«فقال: لا بل اعتزلها فلا تقربها.

«فقال لامرأته: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله من هذا الأمر. وكان من حبه للرسول ﷺ وإيثاره على كل أحد في الدنيا أن ملك غسان يخطب وده ويريد أن يستخلصه لنفسه، ولكنه يرفض ذلك.

«قال: بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن

قدم بالطعام ببيعة بالمدينة يقول: مَنْ يدلني على كعب بن مالك؟. فطفق الناس يشيرون له إليَّ. حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً فقرأته، فإذا فيه: «أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فَالْحَق بنا نُواسِكَ».

«فقلت حين قرأتها، وهذه أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتها[1]».

إنها لحظة من لحظات الضعف الإنساني، جعلت هؤلاء الرجال يتخلفون عن جيش رسول الله ﷺ، وهم ليسوا من الضعفاء وليسوا من المرضى، وليسوا من أولئك الذين جاءوا إلى الرسول ليحملهم فلم يجد ما يحملهم عليه، فعادوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، إنهم ليسوا من أولئك ولا من هؤلاء، ولكنهم استجابوا لأهواء نفوسهم، والنفس أمارة بالسوء. فليكن العقاب ولتكن التربية، وكانت المقاطعة من جانب المسلمين، وكانت الهجرة من جانب الزوجات. هذا من جانب، أما الجانب الآخر فكان الإغراء من جانب الأمم المجاورة، ولكن الحب الذي ملك شغاف القلوب كان أقوى من كل ذلك. كان الحب لرسول الله أعمق من كل حب. إنه حب عامر مسيطر لا يستطيعون منه فكاكاً ولا يجدون منه مهرباً.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

وهكذا يجمع القرآن في آية واحدة جميع اللذائذ والمطامع والرغائب

---

(١) متفق عليه.

ونقط الضعف في نفس الإنسان. إنه يضع الآباء والأبناء ويضع الأزواج والعشيرة، ويضع الأموال وجميع عروض التجارة، يضع ذلك كله وجميع متطلعات البشرية في كفة ويضع في الكفة الأخرى حب الله ورسوله، وحب الجهاد في سبيله. وترجح كفة الله ورسوله، وتتسامى النفوس عن رغباتها وتترفع عن شهواتها وتتجرد عن كل ما يربطها بالأرض. وكما أن أم حبيبة ابنة أبي سفيان رفضت أن يجلس أبوها على بساط الرسول ﷺ، فكذلك فعل عبد اللّه بن عبد اللّه بن أُبي مع أبيه وحال بينه وبين دخول المنزل. روى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن زيد:

«قال: دعا رسول الله ﷺ عبد اللّه بن عبد اللّه بن أُبي.

«قال: ألا ترى ما يقول أبوك؟.

«قال: ما يقول بأبي أنت وأمي؟.

«قال: يقول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل.

«فقال: فقد صدق والله يا رسول الله، أنت والله الأعز وهو الأذل. أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله، وإن أهل يثرب ليعلمون أن ما بها أحد أبرَّ مني، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لاتيتهما به.

فقال رسول الله ﷺ: لا. فلما قدموا المدينة قام عبد اللّه بن عبد اللّه ابن أُبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال: أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟. أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله.

«فقال: يا للخزرج، ابني يمنعني بيتي!!. يا للخزرج، ابني يمنعني بيتي!!.

«فقال: والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه.

فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه.

«فقال: اذهبوا إليه فقولوا له: خله ومسكنه. فأتوه فقال: أما إذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم»[1].

وقامت مدرسة الحب وارتفعت قبابها، وكان مقرها المسجد الجامع، «مسجد الرسول ﷺ»، ولم تفعل هذه المدرسة شيئاً أكثر من دلالتها على الإيمان وإشارتها إليه. نعم الإيمان الجياش الصادق. الإيمان الذي حرر الوجدان من عبادة أحد غير الله أو الخضوع لأحد غير الله. الإيمان الذي يجعل الحياة والموت والرزق والأجل بيد خالق الحياة والموت. الإيمان الذي يسوّي بين البشرية جمعاً في اللون والجنس: كلكم لآدم وآدم من تراب. ومقياس التفوق والمفاضلة هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعندما عرف شباب الإسلام هذا الطريق حملوا المصحف للهداية والسيف لإزالة الباطل، وانداحوا في أربعة أركان الأرض، ينشرون الأمن بعد الخوف، والنور بعد الظلام، والهدى بعد الضلال، فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال، وأقامتهم على ظهر الأرض قادة ومعلمين. إن الإيمان وحده هو الذي فعل فيهم هذا، نقلهم من رعاة إبل جفاة غلاظ يشعلون الحرب لأوهى الأسباب إلى هداة ودعاة. هداة إلى الحق، ودعاة إلى الله الواحد الأحد.

فالإيمان هو الذي أزال الصدأ عن الجوهر المكنون في النفس العربية وجعل من سكان البادية، أساتذة للعالم يختطون من شؤون السياسة والتنظيم الاجتماعي ما تعمل الدول جاهدة للوصول إليه. هؤلاء العمالقة الذين تشربوا روح الإيمان، أفرغت فيهم الحياة أفضل ما تملك من قوى حسية ومعنوية.

---

(١) تفسير الطبري ج٢٨.

خرجوا إلى الدنيا والظلام شامل والجهل حاكم والعقائد زيف وأباطيل فهذبوا الدنيا ومدنوا العالم وقرروا الحق للإنسان.

اختلاف تصورها للإنسان عن تصورات الثقافات الأخرى

الإنسان في منهج الثقافة الإسلامية ليس روحاً فقط كما تدّعي بعض المذاهب الفلسفية، فتحاول جاهدة أن تبرز الجانب الروحي على بقية الجوانب الأخرى.

وليس عقلاً فقط كما تصوره قادة الفكر اليوناني في الزمن القديم، ونادت به بعض المذاهب التي تدّعي التقدمية في عالمنا المعاصر، إلى درجة أنها ترفض كل ما لم يدخل في مجال العقل أو يخضع لسلطانه[١].

وليس هو جسداً فحسب كما اعتبرته دول الرومان وإسبارطه[٢] على وجه الخصوص فوجهت اهتمامها إلى الجسد، وذلك بالعمل على إبراز مفاتنه، رغبة في التمتع بجماله أو تقوية عضلاته لينازل الوحوش والحيوانات المفترسة إرضاء للسادة والأباطرة منهم.

الإنسان في منهج الثقافة الإسلامية عقل وجسد، وروح، وأي تجاهل لأي من هذه الثلاث يبعد الباحث أو المفكر عن التصور الصحيح للإنسان.

والإنسان في التصور الإسلامي يختلف عن التصور الذي نادت به المدرسة «الداروينية» من أن الإنسان الذي خلقه الله وسواه هو عندها ـ ثمرة لتطور العفن وتخمر الطين.

---

(١) راجع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ تأليف: السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي ط ٧ـ دار الكتاب العربي.

(٢) المصدر السابق.

الإنسان عند «داروين»[1] خرج من باطن الأرض فهو من صنع الطبيعة.
أما الإنسان في منهج الثقافة الإسلامية: فهو خلق من طين الأرض فهو من صنع الله.

الإنسان عند المدرسة الدارونية: خلاصة التربة الأرضية وكفى..
والإنسان في منهج الإسلام: قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢].

الإنسان عند المدرسة «الدارونية» مبتوت الصلة إلا بالأرض من باطنها خرج وإليها يعود.

والإنسان في منهج الإسلام.. خليفة الله في الأرض، ودنياه طريق إلى آخرته. يقول الله تعالى:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢].

ويختلف التصور الإسلامي للإنسان عما توصل إليه «فرويد» (صاحب مصحة الشواذ) والذي قرر في معمله.. «أن الطاقة الجنسية هي الكيان الحقيقي للإنسان».

وما دام ذلك كذلك، فهي الدافع وهي المحرك وهي الموجه..؟؟

فهل هذا هو الإنسان..؟

إن منهج الإسلام: لا يغفل الطاقة الجنسية وأثرها في حياة الإنسان، ولكنه لا يعطيها أكثر مما تستحق، فهي طاقة من طاقات الإنسان، وهي وسيلة، ولكنها ليست غاية.

---

(١) شارلز داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م) ـ وصاحب كتاب أصل الأنواع.

الجنس في منهج الإسلام، وسيلة لاستمرار النوع يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

والجنس وسيلة للسكن والراحة، والمودة والرحمة، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

هذا هو الجنس في منهج الإسلام، دافع ولكنه ليس كل الدوافع، وجزئية في تركيب الإنسان لا تتعدى قدراً محدوداً.

ويختلف التصور الإسلامي للإنسان عما توصل إليه التفسير «السيكلوجي» الذي حصر الإنسان في شعور التفوق والبروز كما قرر «أدلر»، أو شعور النقص ومحاولة التعويض كما قرر «يونج» تلميذ «فرويد». إن هذه الجزئية التي توصل إليها «إدلر» و «يونج» ليست هي الإنسان على أي حال ولكنها جزئية من جزئياته فقط.

والإنسان في التصور الإسلامي ليس هو أمشاج المدرسة التجريبية التي تدخل به داخل المعمل، وتضعه على المشرحة، وتعمل فيه مباضعها، وتخرج في النهاية لتقرر: إن الإنسان جسد فقط.

ولعل لها بعض العذر، لأن أدواتها وآلاتها داخل المعمل تعجز عجزاً كاملاً عن معرفة الجوانب الأخرى..

والإنسان في التصور الإسلامي: ليس هو حيوان المدرسة السلوكية، التي تفسر الإنسان على أنه مجموعة من العادات، وردود الفعل الشرطية المنعكسة، أو مجموعة من الحالات المتتابعة بلا جدوى، لأن هذا التحليل ينطبق على

الحيوان لا الإنسان. ليس هو إنسان «ماركس»[1] و «أنجلز»[2] صاحبي التفسير المادي للتاريخ واللذين يحاولان تفسير الإنسان من الخارج، وحصر تاريخ البشرية في البحث عن الطعام.

ليس هو الإنسان كما صورته الوجودية، أو كما أرادته الشيوعية أو الرأسمالية.

الإنسان في التصور الإسلامي.. ليس هو إنسان القوة، أو الخاضع لها عند «جون ديوي»[3] أو الإنسان الذي ترتبط حياته بالقهر الاجتماعي الذي لا يراعي مشاعر الفرد ورغباته كما قرر «دور كايم»[4] صاحب التفسير الجمعي للتاريخ..

حقيقة الإنسان في التصور الإسلامي..

الإنسان في منهج الإسلام هو خلق الله سبحانه وتعالى، والذي أعلن مولده بنفسه.

﴿إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

وقلده أمر الخلافة في الأرض.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وأسجد له ملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩]

---

(١) كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) صاحب كتاب رأس المال (أصل الشيوعية).

(٢) أنجلز فريدريك (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥م) ـ له كتاب عن (لوديج فوير باخ) عن المادية والمثالية.

(٣) جون ديوي (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢م) فيلسوف أمريكي استبدل بمشكلة الصدق مشكلة القيمة.

(٤) إميل دوركايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧م) صاحب مذهب في علم الاجتماع.

وعلمه وأدبه . .

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وهداه إلى الطريق المستقيم، ووضع له طريق الخير والشر

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

ومنحه حرية الاختيار

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٣٨].

وأعطاه الإرادة ليفرق بين الحق والباطل بين الفجور والتقوى.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧، ٨].

وزوده بالإدراك ووسائله.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣].

وأنزل له منهجاً للتربية والتوجيه، منهجاً يتناول الإنسان من تاريخ ولادته، ويتتبعه طفلاً، ويافعاً، وشاباً، وكهلاً حتى آخر حياته.

وهو منهج متكامل لا يقبل تنمية ولا تكميلاً، لأنه من صنع الله، فلا يمكن أي إنسان أن يضيف إلى منهج الله شيئاً، ولا يملك أن يعدل فيه قليلاً أو كثيراً.

هو منهج متكامل لأنه من لدن اللطيف الخبير ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

صانع منهج الإنسان، هو صانع الجهاز الآدمي وموجده، والخبير بكل خلجة من خلجاته، وبكل خلية من خلايا جسمه، وبكل ذرة من ذرات تكوينه.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

فهو الأعلم بما يصلح للبشرية كلها في كل زمان ومكان، يصلح لها في مجال التشريع والحكم، وفي مجال التربية والتوجيه وفي مجال الاقتصاد وعروض التجارة، وكل ما لا تصلح البشرية إلا به: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [تبارك: ١٤].

دعوتها للإنسان للتعرف على الكون حوله

منهج الثقافة الإسلامية يدعو الإنسان ليتعرف على الكون حوله، الكون الذي خلقه الله سبحانه وتعالى من أجله، وسخر له ما في السموات والأرض ليقوم بدور الخلافة فيه ويتعرف على أبراج السماء، وفجاج الأرض، وذرات الشمس، وسدوم القمر، وعلى أعماق البحار والمحيطات، وعلى الجبال والسهول، ليعرف أن كل شيء خلق لحكمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

وقال أيضاً: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وخلق من أجل غاية وهدف.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٦].

يقول صاحب كتاب: «العلم يدعو إلى الإيمان»:

«منذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار في أستراليا كسياج وقائي. ولكن هذا الزرع مضى في سبيله، حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا، وزاحم أهل المدن والقرى، وأتلف مزارعهم، وحال دون استمرار الزراعة، ولم يجد الأهالي وسيلة تصده عن الانتشار، وصارت أستراليا في خطر من

اكتساحها بجيش من الزرع الصامت يتقدم في سبيله دون عائق ودون توقف. وطاف العلماء الذين تخصصوا في علم الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره، وهي سريعة الانتشار وليس لها عدو يعوقها في أستراليا.

«وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار، ثم تراجعت، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية تكفي لصد الصبار عن الانتشار..»[1].

ولقد وقف الإنسان الذي يعتز بقوته وبعلمه عاجزاً أمام ظاهرة من ظواهر خلق الله، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، حتى اهتدى في النهاية إلى آثار حكمة الله في الكون والحياة، وأن لكل شيء سبباً، وأنه خلق لحكمة، وأوجد في هذا الكون بمقدار...

وهذا الذي حدث في أستراليا حدث مثيل له في الهند.. لقد كانت الهند ـ كما نعلم ـ مستعمرة بريطانية، وعندما عاد أحد الجنود البريطانيين المرابطين فوق الأراضي الهندية إلى بلده، حمل معه جلد ثعبان من الثعابين الضخمة التي كانت تنتشر فوق الأراضي الهندية، وتملأ الكثير من غاباتها ووديانها.

وأعجب بالجلد الذي حمله الجندي أحد صناع الأحذية فابتاعه بما يساوي ضعف ثمنه، وصنع منه مجموعة من أحذية السيدات.. وما لبث أن كثر الطلب على هذا النوع من الأحذية، وانتشر المغامرون الباحثون عن الثروة فوق الأراضي الهندية لصيد هذا النوع من الثعابين وبيع جلده لتجار الأحذية، رغبة في إرضاء أذواق سيدات بريطانيا العظمى... سيدة البحار في ذلك الوقت...

.. وقلَّ هذا النوع من الثعابين، وأوشك على الانقراض، ولم تكن هذه

(١) كتاب العلم يدعو إلى الإيمان.

الظاهرة تلفت نظر المهتمين بشئون الهند في ذلك الوقت، وخصوصاً أنهم اعتقدوا أن هذه الثعابين من الأشياء الضارة التي يجب القضاء عليها... وإنما الذي حدث أن الهند أصيبت بكارثة أوشكت أن تدمر أهم غلاتها الزراعية ألا وهو محصول القمح.. لقد فوجئ أصحاب حقول القمح بجيوش من الجرذان تخرج متكاثرة من باطن الأرض لتلتهم كل ما يقع أمامها من سنابل القمح الغضة.. وفشلت كل الجهود في القضاء على هذا الحيوان الجديد الذي يتكاثر بشكل مخيف...

وتساءل المهتمون بشؤون الزراعة عن السبب في تكاثر الجرذان المفاجئ وجاء الجواب من خبراء مكافحة الآفات...

السبب في تكاثر جيوش الجرذان نقص الثعابين التي كانت تتغذى على هذه الحيوانات، وكأنها وقاية إلهية، لحماية محصول القمح وثمار الأشجار من هذه الحيوانات الشرسة، والتي لم تخلق إلا لغاية.

أيضاً قد تغيب عن عقولنا في فترة من الزمن، ولكن لا بد من تكشفها لجيل من الأجيال..

وبعض السم ترياق لبعض وقد يشفي العضال من العضال

● ومن وسائل الثقافة في منهج الإسلام.. أن ندعوه للتعرف على الجبال إحدى روائع الله في الأرض.

دعوة من المنهج ليتعرف العقل على خصائص الجبال وظائفها في هذا الكون الكبير.

والجبال أحد المعالم الأساسية لقدرة الله سبحانه وتعالى على ظهر الأرض. وإذا كانت البشرية في تاريخها الطويل لم تكشف من أسرار وظيفة الجبال إلا القليل، فلعل الله سبحانه وتعالى يهدي الأجيال المقبلة إلى ما تحويه

الحصون الشم، والقلاع الكبيرة التي تنتشر على أركان الأرض من منافع وكنوز. وقد ورد ذكر الجبال في القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

ونحاول بمشيئة الله أن نتعرض للبعض منها بالتفسير والإبانة، وعلى الله قصد السبيل.

الأول: هي جبال خاصة ترفع لبني إسرائيل كأنها ظلة عليهم، وتصبح مكاناً لتلقي الأمر والشريعة، وأخذ الميثاق عليهم.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

إنه ميثاق لا ينسى فقد أخذ عليهم في ظروف لا تنسى، وهي نتق الجبل فوقهم كأنه ظله، وأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس، ولكن إسرائيل هي إسرائيل. نقضت الميثاق ونسيت الله سبحانه وتعالى ولجّت في المعصية.

الثاني: هي بيوت آمنة، وحصون شامخة لقوم مخصوصين، هم قوم صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٢].

هذه الواقعة توقظ القلب البشري ليتفكر ويتدبر، فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في قلب الصخر.

ولكن إذا جاء أمر الله وجدت كل شيء ذاهباً، وكل وقاية ضائعة، وكل حصن هين ضعيف، ولا مفر عند ذلك إلا بالالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى.

الثالث: هي بيوت للنحل الذي أوحى الله تعالى إليه، النحل الذي

يتغذى من خلاصة ما تنبت الأرض من زهور وورود، ليحوله الجهاز الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في داخله إلى عسل مصفى.

إلى شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

الرابع: هو مكان مقدس طاهر.

وبقعة طيبة هيئت ليتجلى الله سبحانه وتعالى عليها.

ليس هذا فحسب، ولكن ليتكلم مع موسى عليه السلام.

ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

إنها الوهلة التي لا تتكرر في عمر الإنسان، وموسى يتلقى كلمات ربه، فيتحول إلى شيء آخر، مبتوت الصلة بالإنسان الأول، ويطلب ما لا يكون لبشر مثله في هذه الأرض، وما لا يطيعه بشر على ظهر هذه الأرض.

إنه يطلب رؤية الله سبحانه وتعالى.

يطلب ويلح في الطلب، حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الحازمة: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ثم يترفق به الرب العظيم فيعلمه لماذا لن يراه.. إنه لا يطيق قال تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والجبل أمكن وأثبت.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ساخت قوائمه، واندكت أركانه، فبدا مسوًّى بالأرض مدكوكاً، وأدركت موسى رهبة الموقف، وسرت في كيانه البشري الضعيف.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

مغشياً عليه، غائباً عن وعيه وعن الكون حوله.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وتاب إلى نفسه، وأدرك مدى طاقته، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

تنزهات وتعاليت عن أن ترى الأبصار وتدرك[١].

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

عن تجاوزي للمدى في سؤالك.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب المجلد ج٣ ص ٦٧ ـ ٦٨.

الخامس: هن كن للراحة والهدوء وحماية للمقيمين فيها من صرير البرد ووقدة الحر.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١].

وهو مكان للسكينة النفسية، والاطمئنان الشعوري، وهذا غاية ما يتطلبه المسلم في بيته.

وقد حرص الإسلام على أن يضمن للبيت حرمته، ويضمن له أمنه وسلامته فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

فلن يقتحمه أحد بغير حق، ولن يطلع على مَنْ فيه لأي سبب من الأسباب، ولن يتجسس على أهله في غفلة منهم، أو غيبة فيروع أمنهم، ويخل بطبيعة السكينة والاطمئنان اللذين أرادهما الإسلام للبيوت.

السادس: هي جبال تسبح لخالقها آناء الليل وأطراف النهار، شاكرة لأنعم الله عليها، عارفة بقدرته تعالى على الخلق والخلائق.

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ١٨].

وقد يقف بعض الناس مدهوشين أمام هذا النبأ. الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشي بالإشراق..؟

تسبيح الجبال عندما يخلو داود إلى ربه. ويرتل الآيات في تمجيده

وذكره، ليس هذا فحسب، ولكن الطير أيضاً يتجمع على هذا الترتيل لتسمع له وترجع آيته ونتساءل علام الدهشة.. ولم العجب..؟

والأمر يتعلق بقدرة الله سبحانه وتعالى..؟

الله سبحانه وتعالى: هو الذي أمرها بالتسبيح، وأذن لها بالنطق.. والله سبحانه هو الذي خلقها وسواها.

إن الأمر في التسبيح والتمجيد لخالق الكون لا يتعلق بالجبال فقط، ولا بنوع من المخلوقين فحسب، ولكنه يشمل هذا الكون الكبير، ما عرف منه وما لم يعرف.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤].

السابع: هي أوتاد على ظهر الأرض يدركها الإنسان البصير لأول وهلة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٦، ٧] فهي أشبه بأوتاد الخيمة التي تشد إليها، أما حقيقتها فكما عبر القرآن الكريم بأنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها.

وقد يكون هذا لأنها تعادل بين التقلصات في البحار، ونسب المرتفعات في الجبال، وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض، والتقلصات السطحية.

وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية.

وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد.

قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

الثامن: هي معاقد للثلوج في أعاليها، ومراشح للحياة في أواسطها، ومخازن لقطرات الطل في أكنانها ومغاورها.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١].

وهي أيضاً منافذ للينابيع وتمد الأنهار بما تختزنه من الأمطار.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ [النحل: ١٥].

ومن المطابقات العجيبة أنه إذا ذكرت الجبال في كتاب الله ذكر معها الماء والأمطار والأنهار.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣].

ولا يكتفي منهج القرآن عند تربيته للعقل بذلك، بل يدعوه في جولة جديدة ليتعرف على خلق جديد من خلق الله.

فما هذا الخلق الجديد..؟

دورها في الدعوة إلى الله

جاء الإسلام منهج هداية ونور.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]جاء الإسلام لتهذيب النفوس، وتقويم الأخلاق، وإصلاح المجتمع، وتنظيم العلاقات بين الناس، ومطاردة الشر والفساد بين صفوفهم، ولقد كان للثقافة الإسلامية التي انبثقت من هذا

المنهج دورها، من ذلك ما رواه الدارمي في مسنده عن الضحاك بن موسى قال:

«مر سليمان بن عبدالملك[1] بالمدينة وهو يريد مكة، فأقام بها أياماً فقال:

«هل بالمدينة أحد أدرك أحداً من أصحاب النبي ﷺ؟ قالوا له: أبو حازم فأرسل إليه فلما دخل عليه قال له يا أبا حازم ما هذا الجفاء..؟

«قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني..؟ قال سليمان: أتاني وجوه أهل المدينة، ولم تأتني..؟؟

«قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، وما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك.

«فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهري[2] فقال:

«أصاب الشيخ وأخطأت.

«قال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت..؟

«قال أبو حازم: لأنكم خربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنقلوا من العمران إلى الخراب.

«قال: أصبت يا أبا حازم. فكيف القدوم غداً على الله تعالى..؟

«قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

---

(١) هو سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي تولى الخلافة عام ٩٦ هـ كان عاقلاً فسيحاً، جهز جيشاً بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان توفي عام ٩٩هـ.

(٢) أول مَنْ دَوَّنَ الحديث، وأحد كبار الحفاظ والفقهاء توفي عام ١٢٤هـ.

«فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لنا عند الله..؟

«قال أبو حازم: اعرض عملك على كتاب الله.

«قال سليمان: وأي مكان أجده..؟

«قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾» [الانفطار: ١٣، ١٤].

«قال سليمان: فأين رحمة الله يا أبا حازم..؟

«قال: ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

«قال سليمان: يا أبا حازم فأي عباد الله أكرم..؟

«قال: أولو المروءة والنهى.

«قال سليمان: فأي الأعمال أفضل..؟

«قال أبو حازم: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.

«قال سليمان: فأي الدعاء أسمع..؟

«قال: دعاء المحسن إليه للمحسن.

«فقال سليمان: أي الصدقة أفضل..؟

«قال أبو حازم: للسائل البائس وجهد المقل، ليس منها منٌّ ولا أذى.

«قال سليمان: فأي القول أعدل..؟

«قال أبو حازم: قول الحق عند مَنْ تخافه أو ترجوه.

«قال سليمان: فأي المؤمنين أكيس..؟

«قال أبو حازم: رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها.

«قال سليمان: فأي المؤمنين أحمق..؟

«قال أبو حازم: رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره.

«قال له سليمان: أصبت، فما تقول فيما نحن فيه..؟

«قال يا أمير المؤمنين أَوَتَعفيني..؟

«قال له سليمان لا، ولكن نصيحة تلقيها إليَّ.

«قال أبو حازم: إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت بما قالوه وما قيل لهم..؟

«فقال له رجل من جلسائه: بئس ما قلت، يا أبا حازم.

«قال أبو حازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

«قال له سليمان: فكيف لنا أن نصلح..؟

«قال: تدعون الصَّلف، وتمسكون بالمرءة، وتقسمون بالسوية.

«قال له سليمان: فكيف لنا بالمأخذ به..؟

«قال: أبو حازم: تأخذه من حله وتصنعه في أهله.

«قال له سليمان: هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك..؟

«قال أبو حازم: أعوذ بالله.

«قال له سليمان: ولم ذاك..؟

«قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات.

«قال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك.

«قال أبو حازم: تنجيني من النار وتدخلني الجنة.

«قال سليمان: ليس ذاك إليَّ.

«قال له أبو حازم: فما لي إليك حاجة غيرها.

«قال سليمان: فادع لي.

«قال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى.

«قال له سليمان: قط.

«قال أبو حازم: قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر.

«قال له سليمان: أوصني.

«قال: سأوصيك وأوجز، عظم ربَّك ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

«قال الراوي: فلما خرج أبو حازم من عند سليمان بعث إليه بمائة دينار وكتب إليه: إن أنفقتها لك عندي مثلها كثير. فردها عليه أبو حازم وكتب إليه:

يا أمير المؤمنين

«أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً،

«أو ردي عليك بذلاً، وما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي..؟

«ثم ساق أبو حازم في كتابه إلى سليمان قصة موسى عليه السلام مع بنتي الرجل الصالح وقد سقى لهما غنمهما ثم التجأ إلى الله تعالى بقوله:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

«فسأل ربه ولم يسأل الناس.

«ثم قال أبو حازم: فإن كانت هذه المائة دينار عوضاً لما حدثت فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل من هذه، وإن كانت لحق في بيت المال فلي فيها نظراء فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة».

ثم ماذا بعد هذا..؟

أتكون الثقافة هي الطاقة المبدعة التي تزودنا بتعاليم إسلامنا، وتؤدي إلى ترسيخ مبادئه في نفوسنا، واستقرار مثله في قلوبنا وتسلحنا بالفهم الواعي لرد الشبهات عنه، وإحباط المكائد التي تحاك ضده من أعدائه في مجال الفكر، وفي دنيا الأيدلوجيات المعاصرة؟

أتكون الثقافة هي الدين..؟

الدين: الذي هو دعوة الرسل جميعاً ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

الدين الذي يعطي كل إنسان حقه كاملاً لا ينقص شيء منه.

وحياته ليست بقاءه على ظهر الأرض فقط، وليست هي الرحلة القصيرة المحدودة.

ولكن هناك حياة باقية بعد هذه الحياة الفانية، فما نقص هنا ادخر له هناك، وما حرم منه في الدنيا يضاعف له في الدار الآخرة.

الدين الذي يجعل الإنسان قريباً من ربه، ووسيلة القرب معروفة بقول الله تعالى ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] ويقول الرسول ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

عندها ينتقل الإنسان من ترابية الأرض إلى شفافية السماء ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

ومن قتامة الأفكار إلى صفاء الإيمان

أم أن الثقافة الإسلامية ليست هذا ولا ذلك، ولكنها قد تقترب من هذا بقدر قربه من الإسلام وتبتعد عن هذا بمقدار بعده عنه.

أثر الثقافة الإسلامية
في سلوك الأفراد

لقد نجح منهج الثقافة الإسلامية في توجيه الناس إلى ربهم وردهم إلى مولاهم قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وقال على لسان أحد رسله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

وآمن كل منهم أن الله قريب منه.. مطلع عليه راصد لكل حركاته وسكناته قريب منه في السر والجهر.

قريب منه في الليل والنهار

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤].

وقال أيضاً: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه، أقرب إليه من همسه الذي يكون بين شفتيه قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ [يونس: ٦١].

وأحس كل فرد من جيل الإسلام الأول أن الله معه يحصي حركاته ويسجل أعماله فلا بد من تنظيف سلوكه وفكره وتنظيف شعوره وقلبه، لا لأن الناس يرونه وهو مضطر إزاءهم أن ينظف، وإنما لأن الله معه دائماً وفي كل لحظة.

﴿هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧].

فإذا كان في مقدور الفرد أن يستتر من الناس، فهل في مقدوره أن يستتر

من الله . .؟ وإذا كان في مقدوره أن يغلق على نفسه بابا لا يراه منه أحد، فهل في مقدوره أن يفعل ذلك مع الله . .؟

فإذا أقام سياجاً بينه وبين الناس فما هو بمستطيع أن يقيم سياجاً بينه وبين الله ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

عندها كان الفرد يؤدي عمله، وهو يرى ربه معه في كل ما يأتي من أمر أو ينتهي عن نهي. فكان الفرد لا يتعامل مع مجتمعه، ولكن تعامله مع ربه، أو بعبارة أخرى، يتعامل مع هذا المجتمع والشاهد الله . .

. . هذا الفرد يتحرج أن يخدع غيره، وهو يعلم أن الله معه، ويمتنع عن ارتكاب جريمة في جنح الظلام وهو يحس أن عين الله تراقبه . .

فإذا جمحت الشهوة في داخل الإنسان، وسقط سقطته، وكان ذلك حيث لا ترقبه عين ولا تناله يد الحاكم، تحولت نفسه في داخله، نفساً لوامة عنيفة، ووخزاً لاذعاً للضمير وخيالاً مروعاً لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام الحاكم أو ولي الأمر ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله عليه أو عقوبة الآخرة . . .

والتاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه النماذج من الرجال والنساء الذين صفت روحهم وطهرت سريرتهم . .

ولم يكن في مقدور الفرد منهم أن ينال من غيره في غيبته، وهو يعلم أن كلامه وحديثه يسجل . .

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

رقيب يسجل كل حركة، يسجل كل همسة، يسجل كل كلمة، كل خاطرة تخطر بالفؤاد.

روى الإمام أحمد بسنده عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنهما..

قال: «قال رسول الله ـ ﷺ ـ إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل بها رضوانه إلى يوم يلقاه...

وإن الرجل ليتكم بالكلمة من سخط الله تعالى، ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى بها سخطه إلى يوم يلقاه»[1].

وكان هؤلاء الرجال من جيل الإسلام الأول نصب أعينهم دائماً قول الله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠].

ليست الكتابة فقط، وليس التسجيل فحسب.. ولكن هناك ما هو أكبر من ذلك وأعظم هناك ما يشبه أجهزة المراقبة، أجهزة المتابعة، التي يخيل للفرد المسلم أنها تكاد تصور حركاته، وترصد سكناته، وتكشف عن سلوكه.

أهي أجهزة للتصوير والرصد..؟ تكاد تلازم الإنسان من ولادته حتى وفاته..؟

ولم لا.. ألم يقل الله تعالى في محكم آياته:

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾ [النجم: ٤٠].

أهناك مانع لغوي أن تكون الرؤيا بمعنى المشاهدة..؟

وأن يعرض على العبد أعماله التي قام بها في الدنيا..؟

---

(١) مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر وأخيه.

أعماله من خير وشر.. وما المانع أن يشاهد القاتل صورته وهو يغتال خصمه في جنح الظلام..؟

ويشاهد الفاجر صورته وهو يسرق عرض أخيه المسلم، عندما كان غافلاً أو غائباً..؟

وهل هناك مانع يمنع المؤمنين من مشاهدة أعمالهم التي قاموا بها في سبيل الله وفي إعلاء دينه، وفي نصرة عباده..؟

إن آيات القرآن تؤكد ذلك وتقرره... قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

بمثل هذا كان منهج التربية في الإسلام يعمل عمله في نفوس جيل القرآن الأول.. وإذا كانت هذه هي الدنيا، فهناك الآخرة، دار الحساب والجزاء فأين المفر...؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦].

أيستطيع أن يذهب إلى بعيد..؟ وأين يختبئ في مكان لا يراه أحد..؟

أم أن ذلك محال..؟

إن كتاب الله يقول في حسم قاطع: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

فلا بد من العرض حيث لا حجاب ولا ستر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨].

ثم ماذا.. عندما يقف العبد في يوم الحساب..؟ يقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤].

استعرض ما فعلت.. فأمامك كل ما أتيت أو اقترفت، فإن نسيت أو

تناسيت فالله لا يسنى. . . : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦].

إنه يوم الجزاء، يوم الأسرار المكشوفة والأعمال المعروضة. . : ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩ ـ ١٠].

أينكر العبد ما سجلته الحفظة عليه. .؟ أيرتاب في أعماله المصورة المعروضة أمامه. .؟

إذن فهناك أعضاؤه التي اقترفت، وجوارحه التي ارتكبت، تنطق ولا تصمت وتصدق فلا تكذب، وتقر ولا تنكر. . ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

وهكذا يرى أن منهج التربية في الإسلام منهج فريد بين مناهج التربية في العالم كله القديم والحديث. .

لأنه يوجد داخل الفرد، وفي داخل الجماعة، أجهزة متابعة أجهزة مراقبة هذه الأجهزة. . لا تضلل ولا تنخذع، ولا يحتال عليها. .

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا الآن. . ما دام في الإسلام منهج متكامل في التربية. .

فلماذا تركنا القريب إلى البعيد. .؟

واخترنا الضار على النافع. .؟

وتركنا هدى الله إلى ضلال الشيطان. .؟

للإجابة على هذا السؤال علينا أن نذهب سوياً في رحلة متأنية عبر التاريخ لنتعرف على حقيقتنا، حقيقة العرب قبل الإسلام..

ونتساءل هل كانت لهم السيادة والقيادة على العالم في ذلك الوقت؟.

هل كانوا يضارعون دولة الفرس حضارة ومدنية؟

هل كانت لهم قوة كقوة الروم تكسر شوكة الدول وتزيل تيجان الملوك؟

وأخيراً هل كانت لهم قيم كقيم الإسلام، وأخلاق كأخلاق القرآن ومبادئ كمبادئ الإيمان؟.

للإجابة على ذلك، والقول الفصل في هذه القضية بيّنه لنا البطل الشهيد جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عندما وقف أمام النجاشي ملك الحبشة يدافع عن نفسه وأصحابه الذين فروا بدينهم من قريش.

قال جعفر ـ رضي الله عنه ـ:

«أيها الملك كنا قوماً على الشرك نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسيء الجوار يستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل ولا نحرم فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن

الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام».

هذه حقيقة العرب قبل الإسلام.. فماذا فعل الدين الجديد لأمة العرب.. حتى كانت لهم السيادة والقيادة على أمم العالم في فترة من فترات التاريخ؟.

الحقيقة أنه لا شيء سوى الإيمان وكلمة التوحيد التي استقرت في قلوبهم وبعدها كانوا خير أمة أخرجت للناس.

لماذا كانوا خير أمة؟.

لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

خير أمة لأنهم دعاة التوحيد والحق...

خير أمة لأنهم ورثة آخر كتاب سماوي أنزله الله سبحانه وتعالى على عباده ليكون لهم هدى ونور..

وبهذا الكتاب صاروا أمة وسطاً قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١١٣].

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول هذا حق وهذا باطل.

وإنها الأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

«أمة وسطاً» في التصور والاعتقاد، لا تعلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي، إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح، وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد.

«أمة وسطاً» في التفكير والشعور، لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة، ولا تتبع كذلك كل ناعق وتقلد تقليد القردة المضحكة إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول. ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب وشعارها الدائم، الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها في تثبُت ويقين.

«أمة وسطاً» في التنظيم والتنسيق، لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب، إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجية والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب، وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان ولكن من هذا وذاك.

«أمة وسطاً» في المكان في سرة الأرض، وفي أوسط بقاعها وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً، وتشهد على الناس جميعاً، وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك، وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.

«أمة وسطا» في الزمان تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها، وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علَق بها من

أوهام وخرافات من عهد طفولتها، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى، وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات ورصيدها العقلي المستمر في النماء، وتسير بما على الصراط السوي بين هذا وذاك[1].

فلماذا تخلفت هذه الأمة عن قيادة البشرية؟.

ألأنها انقطعت عن مستودع النور فعاشت في ظلام الجاهلية وابتعدت عن شرع الله ففقدت مقومات القيادة؟

أم لأنها دخلت في معارك طاحنة مع بعضها البعض معارك بالحق وبالباطل؟.

معارك بددت قوتهم وشتت شملهم، وأضرت بالإسلام والمسلمين.

يقول أحد المؤرخين مصوراً ضراوة المعارك التي دارت بين المسلمين في الفترة التالية لتاريخ الصحابة:

«إنه رأى رأس الحسين - رضي الله عنه - في قلعة الكوفة أمام عبد اللّه بن زياد وهو ينكت الرأس بقضيب كان في يده.

«وما لبث أن ثار المختار الثقفي، وقاد جيشاً جراراً من المطالبين بثأر الحسين، وحاصر جيش عبد اللّه بن زياد، فاستسلم له وقتل عبد اللّه بن زياد، وحُمل رأسه إلى قلعة الكوفة، ووضع أمام المختار الثقفي.

«ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى كان جيش مصعب بن الزبير ينكِّل بجيش المختار الثقفي ويجزّ رأسه بعد قتله لتوضع أمام مصعب بن الزبير في قلعة الكوفة أيضاً.

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد الأول ص ١٨٠ - ١٨١

«وخشي الأمويون على ملكهم، فأرسل عبد الملك بن مروان جيشاً لجباً، فحاصر جيش مصعب بن الزبير وتمكن قائده في النهاية من قطع رأس مصعب لتوضع أمام عبد الملك بن مروان في قلعة الكوفة.

«ولم يقف الأمر عند هذا الحد فما لبث أن زحفت الجيوش المجيشة بقيادة أبي مسلم الخراساني لتحطيم الدولة الأموية وإعلان قيام الدولة العباسية.

«وتم للجيش المغير ما أراد، وخربت المدن، وأبيد مئات الآلاف من أبناء المسلمين، وشرد آلاف آخرون».

والحقيقة التي يجب أن يعرفها أبناء المسلمين الآن، أن الأمر لم يكن أمر تحطيم دولة، وقيام دولة أخرى بديلة وإنما كان الأمر أعمق من ذلك وأكبر، إنه تخريب لذاتية الأمة الإسلامية كلها وانهزامها من الداخل.

وكان نتيجة تحكيم الهوى والغرض، وعدم الاحتكام إلى كتاب الله أن فتحت أبواب بغداد ـ عاصمة الإسلام ـ أمام جحافل التتار والمغول.

وفي مصر العاصمة الثانية للإسلام ـ في ذلك الوقت ـ أرسل الوزير الفاطمي المسلم رسالة إلى الصليبيين ليستعين بهم على حكام مصر المسلمين.

وفي الأندلس كان حكامها المسلمون يستعينون على بعضهم البعض بمن كان يجاورهم من حكام الفرنجة.

فهل هؤلاء يصلحون أن يكونوا أئمة للمسلمين وقادة لهم فضلاً أن تكون لهم القيادة والريادة للبشرية كلها..؟

أرجو أن يحتفظ كل منا بالإجابة لنفسه بعض الوقت..؟

وفي عصرنا الراهن شرد أبناء دولة الكويت، واحتلت بلادهم بواسطة جنود عربية مسلمة، وتم ذلك أمام سمع الأمة العربية وبصرها.

وفي عصرنا الراهن ألقيت آلاف الأطنان من القنابل قنابل الدمار الشامل واللهب القاتل على شعب العراق فتحولت بلادهم وديارهم إلى بلاقع دون أن تمس قيادته «الدكتاتورية» بسوء أو يتعرض جلاّدوه لأذى.

وفي عصرنا الراهن طرد مئات الآلاف من الأكراد المسلمين، وهاموا على وجوههم وسط الجبال الوعرة والصحراء القاتلة فارّين من الصواعق المرسلة والأسلحة الكيميائية القاتلة، التي تصب عليهم بيد إخوانهم في الإسلام. فحولت الكثير منهم إلى جثث متفحمة وأشلاء ممزقة. أما من نجا من هذا الهول فهم أشباح بلا أرواح لا يملكون حيلة ولا يهتدون إلى سبيل..؟؟

تخلف المسلمون عن قيادة البشرية عندما بدأت الدعوات الانفصالية تسيطر على الولاة المسلمين، وأصبح الخليفة رمزاً يحكم ولا يملك، وتحول العالم الإسلامي الكبير إلى دويلات صغيرة على رأس كل منها ملك هزيل ضعيف. وضاعت دولة الخلافة..

عندها سهلت المهمة أمام الذئاب الهائجة لصيد الحملان الوادعة.. فالتهمت فرنسا الجزائر والمغرب وتونس، واستولت إيطاليا على ليبيا. وانقضت انجلترا على مصر، والسودان والعراق وقُسمت بقية الدولة الإسلامية بين بلجيكا وفرنسا وإيطاليا، وتحول القائد إلى مقود، والتابع إلى متبوع.

تخلف المسلمون عن قيادة البشرية عندما أصبح الإسلام عند أبنائه اسماً لا رسماً، وتحول أتباعه إلى واجهة مزيفة للإسلام، فقطعوا ما بينهم وبين كتاب ربهم من صلات فلم يحكموه في شئونهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

واستعاضوا عن ذلك بالنظريات المستوردة، نظريات «فرويد» و «داروين» في الاجتماع وعلم النفس و «ماركس» و «انجلز» في السياسة والاقتصاد و «جون

دوي» و «دور كايم» في التربية والأخلاق فانقطع ما بينهم وبين مستودع النور فعاشوا في ظلام الجاهلية يتخبطون ولا يصلون إلى طريق، وينهزمون في كل معاركهم ولا يحققون النصر.

وإذا كان ذلك كذلك فكيف يعود المسلمون إلى مركز القيادة..؟

وما هي الطرق والوسائل التي توصل إلى ذلك..؟

من حق الإسلام وهو خاتم الأديان السماوية، ويحتل أبناؤه رقعة فسيحة من المعمورة أن يكون له دور الريادة والقيادة في كل ما يتصل بشؤون العقيدة والشريعة والحياة.

ومن حق أتباعه، وهم قوة بشرية لها دورها في مجال السياسة والاقتصاد أن يكون لهم حق التوْجيه والإرشاد.

ولكن كيف يمكن أن يقوموا بهذا الدور. .؟

لقد كان لنا فيما سبق صوت يدوي «بالتكبير» في أنحاء المعمورة كلها.

دوّى في الأندلس حتى وصل إلى مشارف أوروبا. وفي الصين والهند،

فما الذي أخفت هذا الصوت. .؟

ودوّى في القيروان وعلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط،

فلماذا غاب هذا الصوت. .؟

ودوى صوت التكبير حتى وصل إلى مشارف روسيا، وتوغل في داخلها واستولى على أجزاء كبيرة منها.

فكيف خفت هذا الصوت؟

ومن الذي حجبه عن الأسماع وأبعده عن مركز الصدارة. .؟

لقد كتب معتمد القيصر «بطرس الأكبر» لدى الباب العالي: أن السلطان العثماني يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة فلا يباح دخوله لاجنبي.

وعندما فتحت القوة الضاربة للمسلمين القسطنطينية قال «البارون كارادفو» في كتابه «مفكرو الإسلام»:

«إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً، ولا تيسر لمجرد ضعف دولة بيزنطة، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل، ويستخدم كل ما كان في عصره من قوة العلم، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالإيجاد، فأعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرباً ركب مدفعاً كان وزن الكرة التي يرمي بها ٣٠٠ كيلو جراماً، وكان مدى مرماه أكثر من ميل.

وإذا كان المسلمون في صدر الإسلام قد استعملوا السيف ضد المعوقين والواقفين في وجه دين الله، وطوروا أسلحتهم في فتوحات فارس فاستعملوا السفينة والبحر. واستعانوا في القضاء على الروم بسلاح الطبيعة فحصروا أعداءهم بينهم وبين البحر، وكان هذا من أكبر العوامل لتعجيل النصر.

فإن محمداً الفاتح القائد المسلم في هذه المرحلة المتأخرة قد عمل على تطوير أسلحته أيضاً. فكان المدفع والدبابة وتمَّ فتح القسطنطينية التي قال عنها نابليون القائد الفرنسي المعروف «لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها».

فكيف نعيد هذا المجد..؟ وكيف يتحقق ذلك..؟

هل يقتضينا الوضع الراهن أن يكون لدينا قادة، أمثال سيف الدين قطز هازم التتار؟ وقائد عملاق مثل صلاح الدين محطم الصليبية..؟ وبطل محنك مثل محمد الفاتح فاتح القسطنطينية..؟

أم يجب على الأمة، لكي تعيد مجدها، أن يكون لها ابن خطاب جديد

يعزل القائد في أوج انتصاره، ويقاسمه أمواله ما دامت خمرة النصر قد قلبت موازينه فأسرف فيما أعطاه.

وإلى عثمان آخر لم تمنعه صلة الرحم أن يعزل أخاه عن ولاية الكوفة ويقيم عليه حد الشرب في الميدان العام.

وإلى حاكم من نوع فريد كعمر بن عبد العزيز يحبس الولاة المعزولين حتى يدفعوا لخزينة الدولة آخر درهم أخذوه بغير حقه أو استولوا عليه بطريقة غير مشروعة.

فهل عقمت الأمة الإسلامية أن تقدم لنا أمثال هؤلاء..؟

محال أن يكون ذلك. لأن الرسول - ﷺ - يقول: «الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة».

أم يجب لكي تعيد الأمة مجدها وتصل إلى أوج عزها ويكون لها دور السيادة والقيادة، أن تخرج لنا علماء أجلاء، أمثال الفضيل بن عياض الذي تقع يده في يد هارون الرشيد حاكم الدولة الإسلامية العريضة فيقول له: «يا لها من كف.. ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله»

أم علماء أمثال سالم بن عبد اللّه، ومحمد بن كعب، ورجاء بن حيوة الذين ذهبوا لنصح الحاكم عمر بن عبد العزيز في ذلك الوقت.

فقال له سالم بن عبد اللّه: إن أردت النجاة من عذاب الله، فصم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المؤمنين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً. فوقر أباك وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذ شئت.

الحاكم في منطق الإسلام رجل من عامة المسلمين، يرى أن كبير المؤمنين أبٌ له فينزل على رأيه، ويستمع إلى نصحه، وله عليه حق التعظيم والتوقير، وأوسطهم أخٌ له. لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وأصغرهم ابنٌ له، فله عليه حق الرعاية حتى يكبر، وله عليه حق التعليم حتى يتعلم.

ولقد قالها عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قالها لإخوة مدججين بالسلاح يريدون نشر دين الله خلف السهوب والبحار:

«سيروا على بركة الله وأنا أبو العيال حتى تعودوا».

أم أننا في حاجة إلى شيخ من معدن جديد يذهب إليه أحد الولاة ويقول له لماذا لا تزورنا لكي نقضي لك ما تحتاج..؟

فيرد عليه الشيخ: لسنا في حاجة إلا إلى الله سبحانه وتعالى.

ولكن الوالي لم ييأس. ويقول له: إننا مقربون إلى السلطان فهل لك حاجة نقضيها لك منه؟

فيرد الشيخ للوالي قائلاً: إننا مقربون إلى الله أكثر، ألك أنت حاجة..؟

أم أننا في حاجة إلى عالم مثل سعيد بن المسيب يسمع بالنفير يدوي فينخرط مع الجيش الذاهب للقتال. وكان هذا العالم الجليل قد فقد بصره فرأى القائد أن يمنعه من الذهاب لأنه لا يستطيع الاشتراك في المعركة. ولكن الشيخ الجليل صمم على الخرووج قائلاً:

«إن لم أقاتل الأعداء كثرت السواد وحفظت لكم المتاع»

وما فعله سعيد بن المسيب فعله شيخ الإسلام ابن تيمية في معارك المسلمين مع التتار.

أم أننا في حاجة إلى ابن حنبل جديد محطم الكفر والزندقة.

وأبي حنيفة آخر صاحب مدرسة الرأي والتجديد في الإسلام.

والشافعي عملاق العلماء وموجه ومرشد الملوك.

ونتساءل هل إذا وجد القادة خبراء المعارك حماة الحدود والثغور بأسلحتهم الرادعة. وخططهم الباهرة التي تشل حركة الأعداء وتقضي على غرورهم وكفرهم.

وإذا وجد الحكام الذين أمرهم جميع فهم متحدون لا متفرقون، متعاونون غير متباعدين يحكمون كتاب ربهم ويلتزمون بهدي نبيهم.

وإذا وجد العلماء الأجلاء، الذين يأمرون فيطاعون فرغوا من دنياهم وفروا إلى خالقهم.

فهل يمكن أن يعود للإسلام مجده وللإمة قوتها وصلابتها.

أم أن الأمر يحتاج إلى وقفات كثيرة، والطريق يحتاج إلى هداة ودعاة، والبحر أمواجه عالية متلاطمة، والأعداء يتربصون بنا الدوائر، ويفرقون جمعنا ويشتتون وحدتنا، وحصوننا عارية وسلاحنا مفقود.

فهل يمكن أن نعود إلى الله ونفر إليه ونسأله الهداية والرشاد ونطلب منه النصر والتأييد؟

نسأل الله، جلَّ وعلا، الرشاد وقصد السبيل.

الفهرس